2274
.75375
.561

2274.75375.561
'Arīf
Rajul wa-'amal

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE
[redacted]	[redacted]		

Princeton University Library
32101 074498476

إلى الشاعر الكبير الأستاذ
الدكتور أحمد زكي أبو شادي
تحية لوفيه الرفيع
٧١/٦/٢٨

في البلاد العربية السعودية

عبد الله عريف

يقدم

رجل وعمل

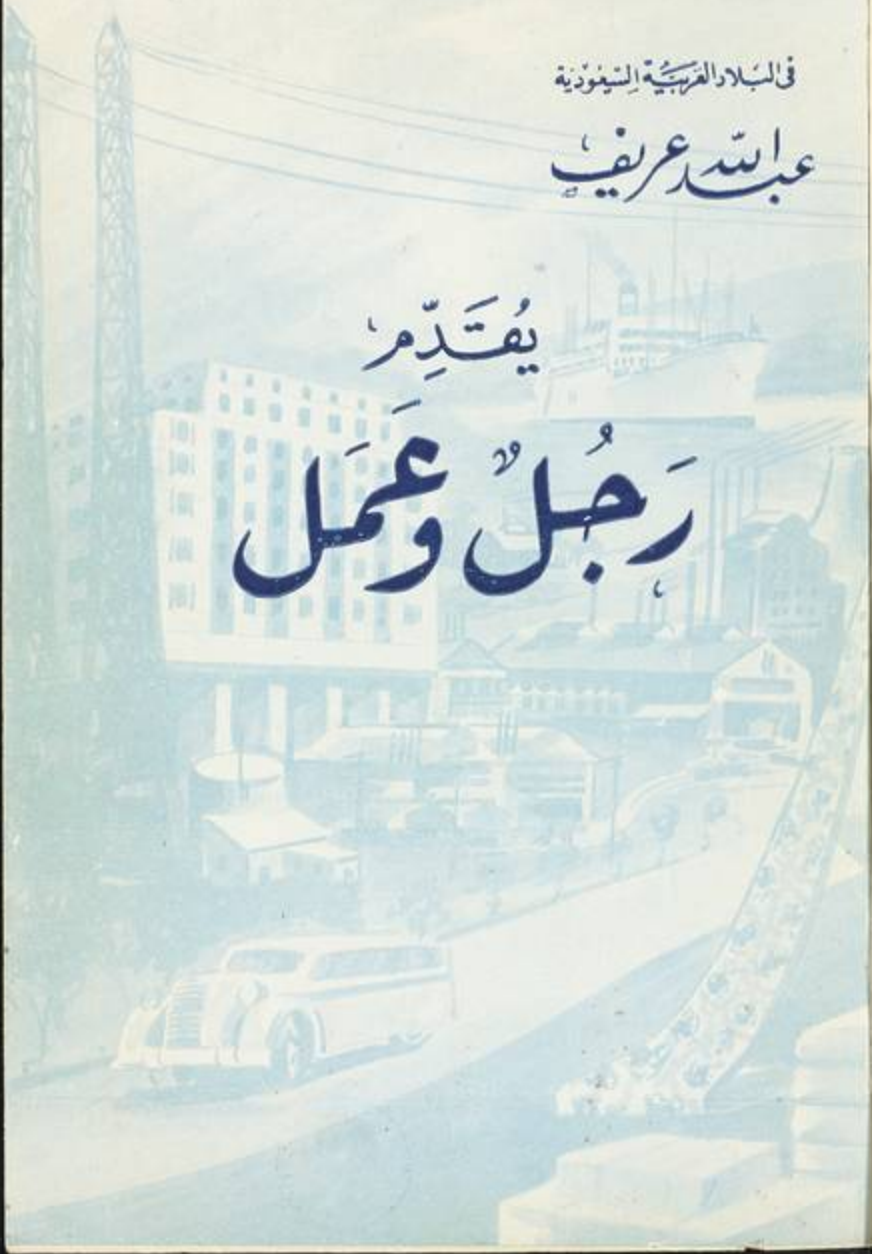

ʿArīf, ʿAbd Allāh

في البلاد العربية السعودية

عبد الله عريف

Rajul wa-ʿamal

يُقَدِّمُ

رَجُلٌ وعَمَل

مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية

١٣٦٩ - ١٩٥٠

2274
.75375
.561

بسم الله الرحمن الرحيم

محمد سرور الصبان

هذا كتاب ممتع خصب ، يقبل عليه القارىء فى شىء من التردد ، ويبدأ قراءته فى شىء من التساؤل : أيستطيع أن يمضى فيه حتى يتمه أم هو سينصرف عنه بعد أن يقرأ منه صفحات ؟ وليس ما يمنعنى من أن أقول ذلك فى صراحة . فمؤلف الكتاب لم يبعد صيته بعد ، وموضوع الكتاب رجل كريم ، بعيد الصوت ، ينزل من مواطنيه ومن كثير من العرب منزلة المحب المكرم ، كما يقول عنترة ، ولكنه حى يشارك فى الأعمال العامة فى وطنه وفى البلاد العربية الأخرى ، ويستطيع أن يسر ويسوء .

والكتاب بعد هذا كله قد ألف فى الحجاز وقد أرادت ظروف الحياة الحديثة ألا يكون الحجاز مبرزا الى الآن فى النهضة الأدبية العربية . وكل هذه أمور تدعو الى التردد فى القراءة وتدعو الى التساؤل: أيمكن المضى فيها الى غايتها ! ؟ .

وخير ما فى الكتاب : انك لا تكاد تأخذ فى قراءته حتى ينجاب عنك التردد وحتى تشعر بأنك مضطر الى

أن تمضى فى القراءة حتى تتمها • ولعلك أن تضطر الى أن تعيد قراءة هذا الفصل أو ذاك من فصوله ، وهـذه الصفحة أو تلك من صفحاته •

وخير ما فى الكتاب أيضا : أنه يردك الى ما ينبغى أن يوطن الرجل الذكى نفسه عليه من أن الاجادة ليست مقصورة على الكتاب المعروفين ، والأشخاص البارزين • وانما تتاح لقوم لم يعرفوا بعد ، ولم يفرضوا أنفسهم على القراء ، فتكون وسيلة الى أن يعرفوا ويفرضوا ، وتشتد الرغبة فى أن يعظم حظهم من الانتاج ، وفى أن تقوى الصلة بينهم وبين الناس • وفى أن الأحياء مهما يشاركوا فى الأعمال العامة ومهما يقدروا على النفع والضر وعلى الاحسان والمساءة فهم خليقون أن يلهموا الكتاب من عواطف الحب والبغض ، ومن الاعجاب والنقـد ما يمكنهم من أن ينتجوا للناس أدبا رفيعا ممتازا • ومن أن الأوطان كالأشخاص قد لا تكون مبرزة فى النهضة الأدبية ولا عظيمة الخطر من المشاركة فيها ولكنها على ذلك تنتج فى الأدب فتحسن الانتاج ، واذا هى تلفت الناس اليها ، واذا هى تفتح لنفسها بهذه الخطوات الأولى طريقها الى التفوق والتبريز • ولا بد

من أن يكتب الكاتب ليعرف . ولا بد من أن تنتج الأوطان لتمتاز فى العلم والأدب . والكتاب المشهورون الذين ذاعت أسماؤهم وبعدت أصواتهم قد كانوا مغمورين لا يعرفهم أحد ولا يسمع بهم أحد . والأوطان التى بعد أثرها فى الحياة الأدبية قد أتى عليها حين من الدهر لم يكن لها فى هذه الحياة أثر قريب أو بعيد .

ولسنا نقول شيئا ذا خطر حين نقرر أن الحجاز قد كان مهد الأدب العربى ، فيه نزل الوحى من السماء ، وفيه نبع الشعر من قلوب الناس ، ومنه انتشرت حرية الرأى وسحر البيان . فاذا ردت الحياة الأدبية الحديثة اليه فضلا من قوة ونصيبا من براعة ، وأتاحت لأهله أن يفكروا فيحسنوا التفكير ، وأن يعبروا فيحسنوا التعبير ، وأن يصوروا فيتقنوا التصوير ، فانما ترد اليهم يسيرا من كثير قد كان لهم ، وتنزلهم منزلة ما كان ينبغى أن يتأخروا عنها ، لولا خطوب الدهر وحوادث الأيام .

ولست أدرى كيف أصور هذا الشعور الحلو الممتع الذى أجده كلما قرأت أثرا ممتازا لأحد من أدباء الحجاز المعاصرين ، فهو أدق وأشد تعقيدا من كل

شعور أجده حين أقرأ الآثار الممتازة لغيرهم من أدباء البلاد العربية الأخرى .

لأن آثار الأدباء الحجازيين تحدث فى النفس هذه المتعة الغنية الخالصة التى يحدثها كل أثر ممتاز ، وتحيى فى النفس ألوانا من الذكرى ، وتشيع فيها ضروبا من الحنين . ثم هى بعد ذلك تبعث فى النفس أمانى باسمة ، وآمالا مشرقة ، ورغبة فى الانصاف قوية ، وحرصا على أن يسترد مهبط الوحى ومهد الأدب العربى مكانته الممتازة بين الأوطان العربية ، وأن يكون أهله هم الطليعة فى العصر الحديث كما كانوا هم الطليعة فى العصور الأولى .

وقد أحسست كل هذه الألوان من العواطف ووجدت كل هذه الألوان من الشعور وأنا أقرأ هذا الكتاب . فقد انجلت اذن عن الأدب العربى الحجازى تلك الغمرة التى غشيته كما غشيت الأدب العربى كله ، فجعلته فى عصر من العصور قاتما مظلما ملتويا معقدا . انجلت عنه هذه الغمرة فاذا هو يسترد اشراقه الأول وبهجته القديمة ورصانته التى عرفناها فى القرون الأولى ، واذا نحن نقرؤه فلا تلتوى ألسنتنا بقراءته ،

ولا تلتوى عقولنا بفهمه ، ولا تغلق قلوبنا دون تذوقه والاستمتاع بجماله الرائق الرصين • وقد انجابت عن الأدب الحجازى المعاصر هـذه الظلمات التى كانت تضطر أصـحابه الى أن يدوروا فى أماكنهم دون أن يتقدموا أو يتأخروا ، يقولون ويقولون فلا ينتجون شيئا ولا يفهم عنهم أحد • ولعلهم هم لا يفهمون عن أنفسهم شيئا •

انجابت عنهم هذه الظلمات فوضحت لهم الطريق وانفسحت أمامهم الآفاق وجـروا الى غاياتهم سراعا لا يلوون على شىء ، أقوياء لا يشفقون من ضعف ، أشداء لا يعجزهم أن يلحقوا من سبقهم ، ولا يعيبهم أن يسبقوا الى الغاية ويبلغوا من التفوق ما يريدون • ها نحن أولاء نقرأ لكاتب حجازى معاصر دراسـة تحليلية لرجـل معاصر من رجال الأدب والسـياسة والاقتصاد • فلا نجد فى الكتاب ضعفا ولا قصورا ، ولا نجد فيه عوجا ولا التواء ، ولا نجد فيه انحرافا عن مناهج التحليل والتعليل ولا ازورارا عن الفقـه الصحيح لأخلاق الناس ، ولما يؤثر فيها ويتأثر بها من الخطوب والأحداث ، بل لا نجد فيه هذا الضعف الذى

كان يفسد على أدباء العرب أدبهم حين يدفعون الى درس الأشخاص فلا يملكون أنفسهم ولا يسيطرون على عواطفهم ، وانما يحبون أو يرغبون فيدفعهم الحب والرغب الى المدح ، ويبغضون أو يرهبون فيدفعهم البغض والرهب الى الهجاء ، ويحول هذا كله بينهم وبين هذا الدرس الحر الذى يدبر فيه العقل أمور العاطفة ، وتسيطر فيه الارادة على الأهواء ، ويبلغ به صاحبه الى الانصاف الذى لا يصدر عن حب ولا بغض ولا يثيره رغب أو رهب ، وانما يصدر عن تفكير صحيح وتقدير دقيق وموازنة معتدلة بين الأشياء .

فها نحن أولاء نقرأ كتابا لأحد الأدباء الحجازيين يدرس فيه رجلا من رجال الأدب والسياسة والاقتصاد فى الحجاز ، فلا يمدحه تقربا اليه . ولا يهجوه نفورا منه ، ولا يفكر فى مدحه ولا فى هجائه . وانما يريد أن يفهمه وأن يمكن المعاصرين من فهمه ، فهما قصدا لا غلو فيه ولا تقصير .

واذا دل هذا كله على شىء فانما يدل على أن هناك شركة قيمة كريمة بين صاحب الكتاب وبين من كتب

فيه الكتاب . فيجب أن يكون صاحب الكتاب فقيها فى أدبه ضابطا لنفسه ، مرتفعا بها عن هذه العواطف الجامحة التى تغرى بالمدح الفارغ والهجاء الكاذب . ويجب أن يكون الشخص الذى ألف الكتاب فيه رجل صدق وقصد وعدل وارتفاع عن الصغائر وطموح الى عظائم الأمور ، لا يحب التكثر فى القول ولا يشجع عليه ، ولا يحفل بما يتعرض له الأخيار من عواطف البغض والحسد والحقد .

واذا استقامت للكاتب هذه الخصال التى تعصمه من الجموح واذا استقامت لموضوع الكتاب هذه الخلال التى تحببه الى النفوس فلا غرابة فى أن ينتج لنا من هذا المزاج المعتدل ، ومن هذه الشركة الخيرة كتاب ممتع رائع نرى فيه كاتبا قد ملك فنه وأحكم أمره . ونرى فيه رجلا قد اتخذ موضوعا لهذا الكتاب فظهر فيه كما هو خيرا كريما ماضى العزم بعيد الهمم معنيا بالجليل من الأمر مرتفعا عن صغائر الأشياء . ونرى فيه بعد ذلك أو من أجل ذلك بيئة حجازية جادة فى سبيل الرقى آخذة بأسباب المجد ، طامحة الى أن تشارك فى النهضة ، وتبلغ منها ما بلغ غيرها من

الشعوب . ثم تمضى مع البلاد العربيـة فى سبيلها لا تلوى على شىء حتى ترد للعرب مجدها القديم ، وتستأنف لهم حيـاة كريمـة ما كان ينبغى لهم أن يقصروا فى ذاتها .

فالكتاب كما ترى مرآة ناصعة لكاتبه ولموضوعه ولهذا الوطن الحجازى الناهض الكريم . فانظر فيه وامض فى قراءته فستستكشف له من المزايا أكثر مما عرضت عليك وصورت لك ، وستستمع فيه بهـذا الشعور القوى حين تجد أن اخواننا الأدباء الحجازيين يفكرون كما نفكر ، ويصورون كما نصور ويسمون فى الفن الى نفس المثـل العليا التى نسمو اليهـا . فالى الأمام يا أدباء الحجاز لتنتجوا للناس الثمر الطيب والأدب العالى ، وتقيموا للناس المثل العليا فى الأدب والسياسة والاقتصاد لتتم للحجاز أسـباب النهضة اللائقة بمكانته فى الحاضر وبماضيه المجيد .

طه حسين

مقدمة

عندما يجىء اليوم الذى تؤرخ فيه حياة الحجاز — فى العهد السعودى — فان صفحة خطيرة من صفحاته ، ستفرد — ولا شك — لحياة محمد سرور الصبان !.

ذلك أن تاريخ حياته الفكرية ، جاء مع تاريخ الصحوة الذهنية ، التى جاءت فى حياة الحجاز ، عقب الثورة العربية الكبرى ، وما وليها من انقلاب سياسى، تبعته حيوات اقتصادية وأدبية وادارية ! .

وكان لمحمد سرور الصبان من التأثير فى تلك الحيوات الثلاث — وهى أظهر مظاهر نهضتنا — ما جعل منه قوة بارزة الأثر ، فى كل حركة يراد منها تدعيم وانشاء مظهر يبين عن حيوية الأمة ، ويدل على مشاركتها الأمم فى الميراث الانسانى العام .

ولقد عاش — ولا يزال — فى مركز الاستجابة لكل ما حوله ، ولا يزال الناس يغمرهم الاحساس

بوجوده ، والتطلع الى فعاليته ، كلما حزبهم أمـر ، أو دفع بهم دافع الى مشروع جماعى ، أو فكرة فردية .

فما أكثر ما يقولون ، محمـد سرور ! وما أكثر ما يتحـدثون عنه ، ويجعلون من حياته ، موضوع أحاديثهم وأسمارهم ! .

وهـذا لا يعنى الاقرار المطلق بمكانته كرجل ، وبشخصيته كبطل .

ذلك أن قاعدة الحب والبغض ، أو النيل والحرمان ، التى يجعل منها الفكر العادى مقياسا لحياة العظماء والزعماء لا تند عن طريقها فى تشخيص مكانة محمد سرور ، فالناس من أمره على أشد ما يكون الخلاف بين رأيين ! .

فهو عظيم استطاع أن ينجح ، ويفيد أمته ووطنه ومليكه ، بما ليس وراءه مطلب . وهو عقبة وقف فى طريق الشباب وطلابه ، والبلاد وحيويتها ، بدد قوى ، وفرق شبابا . وبخر أفكارا فأضاع أمة وقتل نهضة .

هو زعيم أفاد واستفاد ، وسـاعد على تأسيس نهضة فكرية — أنتجت حيوات أدبيـة واقتصادية ، وادارية .

وهو طموح أنانى ، جعل من الشباب سلما ، ومن الوطنية مرقى ، ومن الشركات خدعا ، فلعب بمهارة ، جعلت منه العظيم المزعوم ! .

هو كل ما يمليه الحب والاعجاب ، وهو — أيضا — كل ما يمليه الكره والبغضاء أحبه قوم وشنأه آخرون .

لا أعرف أحدا من رجالات بلادنا ، أسرف الناس هذا الاسراف — فى حبه ، كما لا أعرف أحدا — سواه — من رجالات بلادنا ، أسرف الناس — هذا الاسراف — فى بغضه .

فأين هو فى حقيقته التاريخية بين محبيه ومبغضيه؟.

نستطيع بشىء من السهولة واليسر ، ومجانبة الصدق التاريخى ، أن نوافق هؤلاء — وهؤلاء ، ذلك لأن فى طبائع الرجل ، وملكاته — ككل انسان — ما فى طبيعة الحياة وخصائصها ! .

ففى الحياة الحب ، والبغض ، والعدل ، والجور ، والصدق ، والكذب ، والصداقة ، والعداوة ، والوعد ، والوعيد ، وفيها الأنهار العذبة الدفاقة ، والجداول الضحضاحة الراكدة ، والرياح الباردة المحبوبة ،

والعواصف الجبارة البغيضة ، وفيها الأشواك والورود ، وفيها ... ! الى مالا آخر له من الأشياء ونقائضها .

والنظر ان قصر بصاحبه على أحاسن الأشياء ، وأطايبها ، فالحياة جميلة محبوبة ، والوجود خليق بالحياة ، قمين بالعيش . فان قصر النظر بصاحبه على النقائض والنقائص ، فالحياة ذميمة مجتواه ، والوجود — من قبل ومن بعد — سجن ، سبيل الفكاك منه ، مجانبة الحياة واجتواؤها .

والنفس الانسانية فى حاليها — الرضى والكره — انما تعبر عن احساسها الداخلى بالحياة . ومن هنا يجىء تعبيرها عن شىء ما ، تعبير الانفعالات المختلفة ، التى تصطرع فى النفس ، بعوامل النيل أو الحرمان منها والشقاء أو السعادة بها ، لا تعبير الفكر والعقل .

ذلك لأن الحياة فى حساب الفكر والمنطق ، شىء غير الرضا . والكره ، ان كانت النظرة اليها ، نظرة استيعاب ، وطلب نتائج ومعرفة حقيقة . ولسنا نبحث — هنا — عن الحياة ، ولكنا نبحث عن حياة واحدة هى حياة محمد سرور الصبان .

ومحمد سرور كانسان ينطبق عليه قانون الحياة والنظرة اليها ، لا بد أن يكون شأنه من الناس ، شأن الحياة بأكملها ، وليس فى اجماع الناس ، على مكانة انسان ما والاعتراف بها ، دليل يبين عن عظمته ، وقوة فكره،فما يزال تعدد النظر، واختلاف الفكر عنشيء ما دليل الاكتراث به ، وامتلاء الشعور بتأثره ، وتعـدد جوانب الحيوية فيه .

فأين محمد سرور الصبان فى حسـاب محكمة التاريخ وقضاة عدالته ؟ .

سبيلنا الى هذا الحكم . سبيل المحاكم ، وقضاة العدالة ، فلا بد من كلمة صريحة واضحة ، تشخص بها حيـاته ، لتعرف مواطن ضـعفه وقوته ، وبذلك — وحده — يمكن الحكم له أو عليه .

وقد كتبنا هذه الكلمة عن حياة الرجل صريحة واضحة ، بعد أن شخصنا ترجمة حياته ، وحكمنا له كما حكمنا عليه .

والواقع أن كتابة تاريخ الأحياء المعاصرين ، بدعة افتنها الكتاب الغربيون ، من أمثال « اميل لدفج »

مؤرخ حياة العظماء ، فى العصر الحاضر ولم يستسغها الشرقيون بعد ، وفى الأخـذ بها — وفى بلادنا — جرأة ، ضريبتها احتمال ألوان من التفسيرات التى تلقى على عمـل المؤرخ ظـل الرياء والمداجاة والنفـاق الاجتماعى .

وقليل هم القراء المتمهلون ، الذين نرجو أن يكون حكمهم على عملنا هذا ، نتيجة قراءة دقيقة ، وفهم صادق ، وادراك صحيح لحقيقة البواعث الفكرية التى كان هذا العمل من املائها .

ولهذا فنحن مؤمنون سـلفا ، بأن كثرة القراء ، سوف تصدر فى حكمها على عملنا هـذا ، عن التأثر بفكرة ، ان هذا العمل ان هو الا وليد باعث خاص لا نستحى أن نسميه باعث المنفعة وطلابها .

ذلك أن الرجل الذى نكتب عنه ، مرغوب الصلة ، يستطيع أن يوصل النفع ، ويأخـذ باليد ، كما هو مرهوب السلطان ، مخشى الجانب ، يستطيع أن يوصل الأذى ، ويوصد الأبواب . وقد جرنا البحث فى حياته ، الى الثناء عليه ، والى تبرير ما يأخذه هذا أو ذاك عليه . مما قد يسىء الى مبغضيه والمتحاملين عليه كما جرنا

البحث فى حياته ، الى مؤاخذته فى بعض المواطن بشدة لامواربة فيها ، مما قد يزعج محبيه ، والمعجبين به .

ونحن عن هؤلاء وهؤلاء بمعزل ، معجبون بالفكرة مأخوذون بجمالها ، فقد كنا من أشد الناقمين عليه . وكنا جماعة من الشباب ، وكنت أشدهم حماسا . واقترح أحدهم ، أن أتولى كتابة ترجمة حياته فى صفحات تقدم اليه . ليعلم من هو فى حقيقته المجردة ، وكنت اذ ذاك معنيا بكتابة سلسلة عن تاريخ الحجاز ، فى عهوده المختلفة وشذ بآخر الفكرة ، واقترح أن يمليها الحق والعدل ، لاحساس ما أصابنا من حيف وشر ، ودار الحديث ، عن حياته أياما وأسابيع .

كان ذلك فى صيف عام ١٣٦٠ بالطائف ، وأنا أمارس البطالة ، كجانب لا بد منه فى حياتى ، ثم توليت الكتابة ، فكان هذا البحث ، الذى أقدمه بين يدى القارىء بعد أن دفعته الى الجماعة المقترحة فى صيف عام ١٣٦١ ، ورأت فيه رأيها .

وأيا كان الحكم بعد ذلك ، فحسبى غبطة . أنى تمتعت بفكرتى عن الرجل مكتوبة مقروءة ، فى أسلوب تاريخى نزيه ، كان الاتجاه فيه الى اشباع رغبة الباحث

أقوى منه الى اشباع رغبة الشاب الذى تسخره أمانيه، الى ما قد لا ترتاح اليه أفكاره ، وعقائده .

وسيقول من يقول انها طريقة اعلان عن الذاتية فى ثوب مشرق الألوان .

وسيقول من يقول انها رغبة فى اعلان الاخلاص للسلطة الحاكمة ، التى أنجبت ، أو لعلها أتاحت لمحمد سرور فرصة الظهور على نحو ما .

وسيقول آخرون ما يقولون مما يمس عقيدة الباحث باتجاهه الصادق ، واعتزازه بهذا الاتجاه !! .

وسيصدر بعضهم فى حكمه على ما فى نفوسهم من شعور سلبىأو ايجابى ، نحو محمد سرور ونحو كاتب هذه الترجمة ، ولكننا بعد واثقون من رجاحة فكر من يقدرون دوافع البحث الفكرى وروافده الأصيلة!.

قصة الحياة فى الحجاز

عصر الحسين

اللمحة العجلى فى حياة الحجاز • تتكشف فى عصرين ، لا يختلفان فى حساب الأيام فحسب• ولكنهما يختلفان أيضا — أشد الاختلاف وأقواه — فى حساب الموت والحياة وبينهما من الفوارق ما بين العماليق والأقزام •

كان العصر الأول : قويا يصنع التاريخ ، وكان الآخر ضعيفا يطويه التاريخ فى ثناياه ، فاذا قدر ، وكان التاريخ الحجازى كتابا ، فان أول صفحاته ، انما تلقاك فى أشتات صورها الحيوية — على مختلف ألوانها — بالبساطة فى العقائد والتفكير ، والنظم السياسية ، والاجتماعية ، والعلاقات الأسرية والقبيلية ، وبالسذاجة فى العلوم والمعارف ، ككل حياة فردية أو أممية • بدائية النشوء حديثة التكوين ! •

وليس فى تاريخ تلك الفترة ، شىء من صور

التركيب والتعقيد ، مما يلازم عادة تاريخ المدنيات • والحياة القبيلية هى أوضح صور الحياة اذن ، وان أنصع صفحات تاريخ الحجاز هى صفحة الحياة الأدبية اذ ذاك ، ففى هذا العصر اكتملت اللغة وعبرت عن الحياة الواقعة بصدق وأمانة ، ونقلتها الينا حياة خالية من العلم والثقافة • ولكنها تمثل الحسية فى تفكيرها • وفى رغبات أفكارها ، كما تمثل تجاريب فردية • وحكما استقلالية ليس للعلم والثقافة أى أثر فيها ، وبذلك كانت الحياة الأدبية • هى الصفحة الأولى فى كتاب التاريخ الحجازى الحى ، ثم هى بعد ذلك كانت بمثابة مقدمة لنتيجة محتومة •

والنهضات السياسية تسبق — فى الأغلب والأعم — بنهضات أدبية ، وهكذا فعلت النهضة الأدبية الجاهلية فى حياة الدعوة الاسلامية ، وكتاب الله الكريم دليل حى على ما عملته الثروة الأدبية الجاهلية ! •

***

مضى هذا العهد ، وأقبل عهد كان لا بد أن يكون نتيجة تلك المقدمة ، عهد يعرفه كل أحد ، ويعتز به كل

فرد ، ويبرز فى التاريخ العـالمى أعجوبة الأعاجيب ، يغزو الممالك فيحتويها ، ويقود الحجازيون فيه العالم الى العدالة جماع الفضائل ، والسلام طلاب الحياة ، فكان أنضر صفحة وأبهجها فى ذلك التاريخ الحى ، هو عنصر النبوة والخلفاء الراشدين من بعده ! .

***

ولكن ما أسرع ما تداعى البناء ، وتساقطت شرفاته ، فى موكب حافل خرجت معه الخلافة من الحجاز الى الشام ، وبذلك بدأ عصر الانحلال السياسى فى الحجاز ، واستقر الأمر لبنى أمية فى الشام ، وكان لا بد من ملهاة يشتغل بها الحجازيون ، وليس سوى المال شىء يصرف الأمم عن طلابها ومبتغاها ، وقد بذل الأمويون ذلك فكان عهد عرف الحجازيون فيه أنواعا من الترف والبذخ أنتج لونا من الحياة — مثله عمر بن أبى ربيعة والعرجى والأحوص ، وفـريق المغنين من أمثال ابن سريج ومعبد وطويس وبلغ من شأن هذه الحياة أن أصبحت نسيج وحدها فى تاريخ الآداب العربية بما أنتجته من صور وشكول .

ثم جاء العصر العباسى متمسكا بالسياسة الأموية

فى الحجاز ، جاعلا نفقة أهل الحرمين فى ميزانية الدولة من النفقات الضرورية ضاربا الأرصاد والعيون لكل من تحدثه نفسه بالحكم من أبناء على ، منكلا بهم أشد التنكيل .

***

وهكذا تمضى السنون على حياة هامدة لا تستحق عناية التاريخ ، عدا ومضات فردية فى ظلام دامس ، برزت فى الدين واللغة ، لابد منها مهما تأخرت الشعوب وانحطت .

***

وجاء عصر الدويلات الاسلامية وظل الحجاز كرة تتقاذفها هذه الدويلات باسم حماية الدين ، حتى كان تأسيس الدولة الفاطمية بمصر ، وتقلد الأشراف الحسنيون حكم الحجاز ، وكان المظنون أنهم سيعملون لاعادة مجد بلادهم المندثر واقامة حكم صالح فيه ، ولكن تقلدهم الحكم كان من أسباب نكبته الأبدية بما أشاعوه فيه من اضطراب وثورات داخلية .

***

والواقف على تاريخ الأشراف فى الحجاز يرى أنه

تاريخ مملوء بالدماء والفظائع فالشريف منهم لم يكن يتورع عن قتل أخيه وأبناء عمومته ، فى سبيل الحكم .

ويحدثنا السنجارى أن حميضة بن أبى نميره قتل أخاه أبا الغيث وطبخ لحمه لأخوانه المنازعين له فى الامارة .

***

وبالرغم من أن حكمهم دام ما يقرب من ألف عام ، فان حياة البلاد وطريقة حكمهم بها وأساليب معيشتهم فيها تكاد تكون نسخة واحدة ، وانك لا تكاد تجد صفحة وضاءة فى تاريخ حكمهم الطويل ، فيما عدا الشريف سرور المتوفى عام ١٢٠٣ هـ فانه أول من أذل الأشراف ، وكسر شوكتهم ، وسلطانهم ، وأسس حكما عادلا فى مكة ، ثم الشريف غالب الذى غزا السعوديون الحجاز فى أيامه والذى قبض عليه محمد على باشا عند ما غزا المصريون الحجاز ، وأخيرا الشريف الحسين ابن على ، وسيأتى الحديث عنه بعد . وترجع مسئولية ذلك ، الى انصراف الحكام الأصليين من الدويلات الاسلامية الذين حكم الأشراف باسمهم الحجاز ، ولاسيما الدولة العثمانية ، والى جهلهم أساليب الحكم

وتقاليد العرب وعاداتهم ، وفى هذا يقول الأستاذ حافظ وهبه : « ان الواقع الذى لا ينكر أن الأتراك كانوا رجال فتح وحرب ولم يكونوا رجال تعمير وتمدين ، فالبلاد التركية والبلاد العربية ، التى خضعت للسيادة التركية مدة طويلة كانت فى التقهقر والتأخر سواء »[1] ولولا أن موت الشعوب يباين موت الأفراد ، فى لزوم اتباعه التجهيز أو الدفن لكانت اذن نهاية أبدية لهذا الشعب • بانتهاء عصر القوة صانع التاريخ ، ولكن التاريخ لا يدفن الشعوب وانما يطويها فى ثناياه لينشرها اذا ما دبت الحياة فى عروق أبنائها •

* * *

وهذا ما وقع فى بعث الحياة الحجازية ، فان قيام الجمعيات السرية وحركات الاصلاح داخل البلاد التركية وخارجها ، واشتراك ضباط العرب وبعض الشخصيات العربية الممتازة فى كل ذلك ، مما أنتج قيام الدستور العثمانى، واسقاط السلطان عبد الحميد، كل هذا قد أيقظ الروح القومية ، فى البلاد العربية عامة

---

(١) كتاب جزيرة العرب

وكان لذلك صداه فى الحجاز فاتجهت النفوس الى طلب حياة جديدة غير حياتها الأولى .

* * *

يقول الأستاذ حافظ وهبه : « ان أول محاولة لتثقيف العقول والقضاء على شىء من الأمية من جانب الحاج محمد على زينل رضا فانه فى سنة ١٣٢٦ هـ وما بعدها قام بانشاء مدرستين احداهما فى جدة والأخرى فى مكة ، ومع ما وضع فى طريقه من العقبات وما أحيط به مشروعه من الشكوك من الأتراك والأشراف ، فان هذه المدارس قد قامت بنصيب وافر فانها أيضا قامت بنصيب يذكر ، وكل ما كان فى الحجاز ، اليوم هى من غرس هذه المدارس ... على أننا لا ننسى هنا بعض المعاهد التى أسسها الهنود فى مكة والمدينة فانها أيضا قامت بنصيب يذكر ، وكل ما كان فى الحجاز ، قبل ذلك — هو حلقات الدروس فى المسجد الحرام — على نظام التدريس فى الأزهر قديما ، ولم يكن العلماء يلمون الا ببعض العلوم الشرعية واللغوية » [1] .

* * *

(١) منزل الوحى نقلا عن « جزيرة العرب » .

وقبل ذلك افتتحت المدرسة الخيرية للشيخ محمد حسين الخياط بمكة ومدرسة المعلمين العليا بالمدينة ، كما تأسست بعد ذلك بعض مدارس أميرية كل ذلك أنشأ شبيبة لا بأس بفهمها وادراكها ، وكانت النواة الأولى لبعث الحياة ونشورها فى الحجاز .

كما أخذت الحوادث السياسية خارج الحجاز تتلاحق دراكا ، حتى انتهت باعلان الثورة العربية الكبرى ، ونهضة الشريف الحسين بمكة ، وتنصيبه ملكا على الحجاز ، وتعريبه كل ما تركته الحكومة العثمانية .

عصر الحسين :

يقول الأستاذ حافظ وهبه : « اذا كان الأشراف قد سلكوا فى الناس مسلك الكبر والجبروت والترفع عن الناس وعدم مخالطتهم ، فان الشريف حسينا قد امتازت أيام أمارته الأولى بالتواضع والعدل والغيرة على أهل مكة ، والدفاع عن مصالحهم ، كما اشتهر أيضا بالشجاعة وعلو النفس ونقاء الذيل ، كما أنه أول

عربى جعل للبلاد العربية شخصية دولية وشأنا لا ينكر فى أوربا »[1] .

أما عن الحياة الحجازية فى عصره فاننا ننقل اليك ما كتبه الصديق المرحوم محمد سعيد عبد المقصود فى مقدمته التاريخية لوحى الصحراء .

« ان عصر الملك حسين كان عصر حياة جديدة للحجاز وأهل الحجاز . والاتجاه الذى حدث فى النفوس الحجازية بعد اعلان الدستور العثمانى ونهضة الحسين وما عقبها من عوامل قد طبعا الحجاز . بطابع النشاط ، وهذا النشاط بشير تطور . لولا سياسة الضغط والاخماد التى اتبعها الملك حسين ضد التعليم والحياة ، وبالرغم من ذلك ومما لقيه الشباب المتأدب فى هذا العصر من كم للأفواه وحجر على الحريات ، فقد كان لسعة العيش وتوفر الرخاء ، ونشاط حركة التعليم فى المدارس الأهلية الأثر الحسن للتكوين والتأسيس أى أن النهضة الفكرية الراهنة انما هى ثمرة الجهاد السياسى والتعليمى فى عصر الحسين »[2] .

---

(١) جزيرة العرب .
(٢) مقدمة وحى الصحراء .

وفى رأينا أنه لو برىء الحسين من غلبة سوء الظن وسرعة التأثر بالوشايات واعتداده برأيه ومكانته ورفضه ما سواهما ، لكان عصره فرصة للأمة العربية بكاملها فى الحياة الكاملة الموفورة ، ولقد كان لتمكن هذه الخلال من ذهنية الحسين ونفسيته الأثر الفعال فى تكييف سياسته نحو الحجاز ، فهو لا يطمئن الى كثير من الشخصيات العربية المسلمة التى تريد أن تعمل على اصلاح الحجاز لشكه وريبته فى دوافع هذه الحركة ، ولا يريد لبلاده السير فى طريق الحياة الأممية ، ويكره للشباب أن يمشى فى الطريق التى سلكها شباب العرب فى مصر وسوريا ويصرح (بأنه لا يلزمنا نحن العرب من التعليم غير ما يوافق حالنا وبلادنا) وتفسير هذه العبارة الاكتفاء بثلاثة مدارس تحضيرية فى مكة وثلاثة فى المدينة ، وواحدة فى جدة وينبع والطائف مع مدرسة ابتدائية فى كل من جدة ومكة والمدينة . ومدرسة زراعية واحدة فى مكة ويرفض رغبة الثرى الأمريكى (كراين) فى ابتعاث نفر من الشباب الى أمريكا وتعليمهم على حسابه . ويأبى على شركة (النعمانى) امتياز التنقيب عن المعادن مقابل أربعين

فى المائة من الأرباح • تمد بها خطوط حديدية بين مكة وجدة وينبع والعلا ، ولا يقبل لبلاده أن تستبدل الجمل — كواسطة نقل — بالسيارة واذا كان ولا بد من اصلاح فهو فى الحدود التى يرسمها هو ولا تمس سياسته الخاصة بشىء ! •

واذن فلا بأس من انشاء دار لسبك النقود فى مكة، ودار لطبع الطوابع البريدية ، وانارة المسجد الحرام بالكهرباء وتأسيس البلديات فى المدن الحجازية والعناية بتوسيع المصحات ، واصلاح الشوارع والأسواق أما ماعدا ذلك فهو الحريص أشد الحرص على عدم حدوثه فى بلاده ! •

ومن أجل هذا تجىء أخبار تجسسه ومراقبته وحوادث دهائه ومكره وظلمه واسرافه فى صبغ الحياة باللون الذى يريد •

كل هذا والحياة خارج بلاده ، وفى البلاد العربية عامة مأخوذة بالروح الوطنية التى خلقتها الحرب العامة والشباب — على قلته — يتطلع الى هذه الحياة خارج بلاده ، ولا يستطيع أن يشير اليها أو يعلن اقتباسه منها وتعلقه بها ، وتستوفز نفسه الى الصحافة والنشر ،

فيطلب من السلطة الحاكمة الاذن فلا يجاب ، ويهدد بالنفى والطرد وتظل هـذه الرغبات تعتلج فى نفسه لتخرج من صدره أنة حزينة فى كل ما يكتبه من نثر أو شعر ! .

ومن هنا جاء ميل الرعيل الأول من الشباب الى الأدب السورى المهجرى لأنه يعبر عما فى نفوسهم من قلق واضطراب وآمال وأحلام ، ما تجـده مصورا فى (أدب الحجاز) و (المعرض) و (خواطر مصرحة) وهى الكتب التى كتبت فى عهد الحسين ونشرت فى أوائل العهد السعودى الحاضر .

وانك لا تكاد تقرأ هذه الكتب الثلاثة التى تصور أدب الرعيل الأول من الشباب من أمثال محمد سرور الصبان وعبد الوهاب آشى وعمر عرب وأحمد ابراهيم الغزاوى ومحمد حسن عواد ومحمد سعيد العامودى ومحمد بيارى وجميل حسن وغيرهم حتى تتصور لك صبوة الشباب الى الحياة الجديدة ، وحرارة اتجاهه التى كانت تعبر عن الثورة البدائية فى نفوسهم ، ولكنها ثورة مرتبكة متطلعة الى شىء محدود وغير محمود ، فأية نواحى الحياة يأخذون ؟ وأيتها يتركون ؟ يريدون

الغاية فى أقصر زمن تستطيع أن تنال فيه هذه الغاية . اتجاه حار ، ولكن حرارته سبب ضعفه ، والسلطة القائمة تضرب بيد من حديد على كل ذلك اذ ترى فيه جرثومة خطر على كيانها وأداة ساحقة ، لطغيانها وعبثها ! .

وهذه الحركة من الشباب وهذا التفكير الجديد الذى يريد أن يطبع الحياة فى الحجاز على مثال سابق عرفته البلاد العربية الحجازية ، ثم هذه القسوة من جانب السلطة الحاكمة ، وتلك الشدة والضرب بحقد وحنق ، كل ذلك من نتائجه أن باعد بين الشباب المتعلم والحكومة وبذلك ينقضى عهد الحسين ولم يبلغ الشباب من أمانيه شيئا مذكورا ، وكل ما أفاده أو لعل كل ما نستطيع أن نقول آنه أفاده اذ ذاك ، هو أن روحا أدبية استطاعت أن تشق طريقها الى نفوس أفراد قلائل من شباب البلاد ... نلتمس هذه الروح فى ما أنتجه أولئك النفر فلا نستطيع أن نتساهل فى الحكم على ضعفها واتجاهها الى طريقة لا تكاد تمتاز عن طريقة الانشاء المدرسى الا بتساهل كبير ، ولكننا لا نستطيع الا أن نلتمس لها المعذرة الصادقة كما

نلتمسها لخطوات الطفل البدائية اذا حاول الوقوف على قدميه .

ورغم ذلك فان هـذه الروح — التى تمثلت فى محمد سرور الصبان وزملائه — على ضعفها كانت الصرخة التى استثارت حيوية الفكر الحجازى بعد اغفائه الطويل .

ولا يستطيع الباحث اذا تلمس الاتجاه الأدبى القوى الذى انساق اليه الشباب فيما بعد ، الا أن يقدر الأثر الحى الذى كان من خلق تلك الجماعة منذ أن تمثل فى اتجاهها القديم .

وأخيرا جاء العهد السعودى الحاضر — بعد مناوشات سياسية وحربية — دامت سبعة عشر عاما بين الملك الحسين وجلالة الملك عبد العزيز بن السعود وانتهت بانتصار جلالة الملك عبد العزيز على خصمه واستتب الأمر له فى الحجاز وكان أن انشغلت الحكومة الجديدة فى أول أمرها ، باقامة الأمن وتثبيت الحكم بعد ما كان من فساده واضطرابه ، ثم اشتغلت بحروب خارجية وثورات داخلية استنفدت الكثير من جهدها ومالها ! .

والحياة تسير مع ذلك سيرا طبيعيا لا يعتورها اكراه أو ضغط ، والشباب يسير على هدى ما فى نفسه من شعور ، وما فى شخصيته من مقومات حتى اذا لم يبق أمام الحكومة شاغل من تلك الشواغل ، اتجهت عنايتها الى الاصلاح مسايرة فيه مطلب الدين الحنيف تاركة السبيل لكل من تحدثه نفسه بالاصلاح ، ويجد من نفسه القدرة عليه ، سواء أكان من أبناء هذا البلد أو من غيره من البلاد الاسلامية المجاورة ، مستعينة فى ذلك بكل سبل الاصلاح من تسيير المواصلات بقدر الامكان ، والاتصال بالعالم الخارجى ، والأخذ بالمفيد من علومه وتجاربه ، والشباب فى جميع ذلك يساير الحركة ويغذ السير ، وقد وجد فى الصحف التى صدرت لعهد الحكومة وهى : أم القرى ، وصوت الحجاز ، والاصلاح ، وجريدة المدينة ، والمنهل ، مجالا للتعبير عن آماله وأمانيه ، كما أشاعت التعليم بجميع أنواعه ودرجاته فى جميع المدن وابتعثت البعوث الى الجامعات فى البلدان العربيـــة المجاورة والى أوربا وأمريكا ، وبذلك أتاحت للشباب الفرصة التى يطلبها .

كما ألقت بمقاليد الاصـــلاح الى أبناء البلاد ، واستعانت فى ذلك ببعض الشخصيات العربية ، وفى معالم الحياة الحاضرة تباشير المستقبل الوضاء .

قبل العهد السعودى
نشأة وتكوين

جاء فى كتاب وحى الصحراء ما يلى :

(محمد سرور الصبان ولد بالقنفدة فى خمس من ذى القعدة عام ١٣١٦ هـ وانتقلت أسرته الى جدة عام ١٣٢٠ هـ — وفيها تلقى علومه الأدبية ، ولما نشبت الحرب العثمانية الايطاليـة ، تحولت أسرته الى مكة فالتحق بمدرسة الخياط ، ثم انصرف الى الاشتغال بمحل والده التجارى وفى عام ١٣٣٦ عين كاتب يومية بادارة البلدية ثم رقى الى وظيفة محاسب ورئيس كتاب فى البلدية)[1].

ترى كيف قضى طفولته الأولى ؟ ولمـاذا انتقلت أسرته من القنفدة الى جـدة ؟ وهل كان فى تقدير الأسرة أن سيكون لهذا الطفل شأن فى الحياة الحجازية

(١) وحى الصحراء ص ٣١١

فهيأت له بيئة يكون مجال الحياة فيها أوسع وأرحب ؟ وماذا لو سارت الأمور فى مجراها الطبيعى وظل الفتى فى موضع ولادته ولم ينتقل من القنفدة الى جدة ثم الى مكة ؟ .

الواقع الذى لا يقبل الجدل أن ذلك كله تم دون تدبير أو تقدير وأغلب الظن بطفولته أنها كانت طفولة عادية شأن آلاف الأطفال الذين يمرون بالحياة فى جميع الأجيال ثم يتهيأ لهم من ظروف الحياة ما يجعل اسمهم على فم الزمان .

ولم يكن تعليمه سوى (القراءة والكتابة والتجويد والحساب فى المدارس التى كانت موجودة فى ذلك الحين) كما جاء فى ترجمته بقلمه فى كتاب أدب الحجاز، صفحة ٧٩ ولكن عقل الفتى وروحه وتطلعه جعل من تلك المواد البسيطة — مع ما كان معروفا عنه من حب للمطالعة وادمان القراءة والتلقى — قوة ثقافية — تعادل الدرجة التعليمية للشباب فى عصره .

***

وكان فى الثامنة عشرة من عمره عندما أعلنت الثورة العربية الكبرى ، وهى سن التهيؤ والاستعداد ، والايمان بالفكرة الغالبة والروح السائد لعصره .

وليس سوى فكرة القوميات وروح الوطنية ، شعار الحياة الأممية اذ ذاك ، وكان هذا الشعار نتاجا طبيعيا للحرب العالمية ، وكان من آثاره فى الشرق ثورة مصر عام ١٩١٩ م وثورة العراق عام ١٩٢١ م ، ووقعة ميسلون فى الشام ، وجهاد عبد الكريم فى المغرب الأقصى ، والثورات الداخلية فى بلاد العرب ، وانقلاب نظام الحكم فى تركيا وايران وأخيرا الانقلاب السياسى فى الحجاز ، بزوال الحكم الهاشمى ، واستتباب الحكم السعودى الحاضر .

وبالجملة فقد كانت الحياة اذ ذاك ، ولا سيما فى الشرق قصة « درامية » من أعنف القصص التى مثلت على مسرح الحياة فى الشرق .

والحياة الأممية تتجاوب كما تتجاوب مشاعر الأفراد ، فكان لا بد للحجاز من حياة جديدة ، ولا بد لهذه الحياة من شباب ، وكان طبيعيا أن يتأثر الشباب ، على قلته ، بالحياة خارج الحجاز ، وأن يتطلع الى ألوانها البهيجة التى تصورها الصحافة ، وكتب الأدب ، وأن تكون له أمان وآمال ، وأن يشارك البلاد العربية شعورها بالحياة الجديدة ، وأن يتطلبها بقلمه وروحه

فى نثره وشعره ، مما نجد صورته فى كتاب (أدب الحجاز) . ولكن ما هو أثر ذلك جميعه فى نفس الشاب محمد سرور ؟ .

يجيبنا على هذا المقال بقلمه تحت عنوان «لا اصلاح مع الرياء » ننقل اليك بعض فقره لترى أثر هذه الحياة الجديدة وطلابها والسعى لها مجسما فى مقاله فاصغ اليه يقول :

« أيها الرفاق ! .

نحن اليوم على مفترق الطرق . فاما سعادة دائمة ، واما شقاء واقع ، لقد تقلص الماضى على ما فيه من خير أو شر ، وأصبحنا ازاء حالة جديدة ، وتطور عظيم اذا نحن لم نسر فيه على منهج قويم وبقدم ثابتة لا نأمن العثار ونسقط فى هاوية لا مخرج منها ...

ان البلاد تجتاز مرحلة لم تتعود السير فيها وقد ألقت زمامها فى أيدى قادتها وها هم أولاء سائرون .

لقد تعود قادتنا من أبناء أبينا ، أمورا أصبحت فيهم بحكم العادة طبعا خامسا . هذه الأمور هى الرياء فى كل شىء ، عدم الاخلاص فى القول والعمل ، والاغترار بالمظهر دون الجوهر ، السير مع المصلحة الذاتية ،

تضحيـة المجموع فى سـبيلها ، العمل على انفراد ، التعصب للرأى الآفن يضـاف الى ذلك ضـعف فى العزيمة ، ونقص فى الشجاعة الأدبية ، وقصر فى الحالة الفكرية،وغير ذلك... نريد الاصلاح،الاصلاح فى كل شىء ، فأين هم الحجازيون ؟ هـل فى الحجـاز علم أو تعليم ؟ هل فى الحجاز قادة ؟ هل فى الحجاز صحافة؟ هل فى الحجاز نواد أدبية ؟ هل فى الحجاز رابطـة دينية ... ؟ فهل نعمل لاسترداد المفقود ؟ واصلاح الموجود بقلوب مـلآى بالايمان ، وعزائم تناهض الحدثان وتغالب الأيام .

اذا أخذنا نجمع أجزاءنا المفرقة ، وأعضاءنا الممزقة، ووحدنا كلمتنا وارادتنا الكلية والجزئية نحو سعادة الأمة الحقيقية ، فى ذلك اليوم يشعر الحجازى أنه عضو عامل فى الأمة يسعد بسعادتها ، ويشقى لشقائها تحت لواء (الاتحاد والأخاء والمساواة والعدل) .

فى ذلك اليوم ينفسخ أمامنا مسرح الفكر ، ويتسع لنا مجال العمل ، ويكون لارادتنا وميولنا تأثير فى رقى مجتمعنا .

فخلصونا يا قوم من الرياء وسيروا بنا تترفع عن الدنايا ، وتنهض الى المعالى .

سيروا بنا نخرج العقول من مضايق الشخصيات .

سيروا بنا نقوى العزائم ونهيب بالهمم .

سيروا بنا الى الاستنتاج الصحيح من المقدمات اليقينية .

سيروا بنا الى أن نصون الأعمال من الخلل » .

وهو بهذا يكشف عن استجابة قوية لفكرة العصر وأوضاع الحياة الجديدة فى العالم بعد الحرب، ويطلب بقلمه — وكأنه يخطب — لأمته السير فى الطريق الجديد ويريد لها كل مظاهر الحياة الراقية من صحافة وقواد ونواد وزعماء لتأخذ الحياة فى بلادنا سبيلها الطبيعى الى النهوض والارتقاء .

العهد الجديد

جهاد وثورة

جاء فى وحى الصحراء ما يلى :

(لما شكلت حكومة جلالة الملك عبد العزيز آل السعود البلدية عام ١٣٤٣ هـ عين محمد سرور بنفس الوظيفة (محاسب البلدية) ثم انتخب عضوا فسكرتيرا للمجلس الأهلى وعلى أثرها اعتقل ضمن المعتقلين السياسيين ، وأفرج عنه بعد فتح جدة وعين معاونا لأمين العاصمة ، وفى أوائل عام ١٣٤٦ نفى الى الرياض بتهمة سياسية وبقى مسجونا الى موسم عام ١٣٤٧ ، حيث عفى عنه فأخذ يشتغل بالأعمال الحرة حتى عين رئيسا — لقلم التحرير بوزارة المالية — ثم مديرا لادارتها ، ويعد اليوم من أعظم الرجال العاملين لحكومة جلالة الملك وهو اذن كما يتبين من الترجمة السابقة فى الثامنة والعشرين من عمره

عندما تم الانقلاب السياسى فى الحجاز ، بزوال الحكومة الهاشمية واستتباب الحكم السعودى الحاضر .

وكان الشباب المتعلم — وفى مقدمته محمد سرور — قد ضاق ذرعا بأساليب الحكومة الهاشمية فى ادارة الحكم ، ومحاربتها التعليم وكان يرجو لو أتيح للبلاد سياسة حكيمة تساعده على تحقيق أمانيه والسير فى الطريق الذى سارت فيه البلاد العربية المجاورة ، ومع ذلك فانه لم يطمئن الى الحكومة الجديدة وساوره القلق مما أذيع عن ميولها وعن طريقتها فى الحكم .

وكان محمد سرور يحكم تركيبه النفسى ومؤهلاته الخاصة ، فى مقدمة هذا النفر من الشباب وكان رأيه فى الحكومة السابقة أنها (ادارة قاسية لا يروقها ولا يعجبها وجود رؤوس مفكرة مستنيرة فى الأمة ، تكون مصدر نهضة صادقة ، تعلم الناس حقهم فى الحياة وحقهم فى الحرية اذ ترى فى ذلك جرثومة خطرة على كيانها ، وأداة ساحقة لطغيانها وعبثها بمقدرات الشعب المادية والأدبية ، لذلك كانت هذه الادارة تكافح العلم والأدب كما تكافح عدوا جبارا بعين يقظة وعزيمة صادقة فى الضرب بقسوة وحقد وحنق على يد كل

من يظهر عواطفه بانتقاد ، أو يعمل على نصرة العلم أو تنشيط التعليم ، أو يفكر فى تثقيف الناشئة على غير الروح التى تريدها .

زوال حكومة هذا رأيه فيها واستتباب حكم آخر، وقود جديد لنفسه المستوفرة المتوثبة وسبيل للعمل فماذا يعمل ؟ .

ليس من منطق النفوس القوية التهليل والتكبير بالادارات الجديدة .. ولكن سبيلها العمل الصامت ، حتى تتبين طريقها الذى يجب أن تسير فيه .

وكان أول أعمال الحكومة الجديدة ، تشكيل مجلس وطنى سمى (المجلس الأهلى) وكان مجلسا انتخابيا انتخب فيه صاحب ترجمتنا (باجماع الآراء) عضوا للمجلس وأمين سر وكان يشغل عدا هذا وظيفته على عهد الحكومة السابقة وهى رئاسة محاسبة أمانة العاصمة وقبل أن تثوب نفسه الى فكرة خاصة ، عاجلته الادارة الجديدة بالسجن وكاد هذا السجن يكون الصخرة التى تتحطم عليها أمواج آماله وأمانيه لولا أن تداركه روح قوى من نفسه أعاد اليه ثباته وتماسكه، ولسنا نقول هذا اختراعا وافتراضا ولكنه التفسير

الضرورى لقصيدته (عاطفة نفس) التى نظمها فى السجن والا اذا لم يكن ذلك تفسيرها فأى شيء هذا الذى يقول :

جل الأسى وتتابعت زفراتى
ودنى المشيب فقلت حان مماتى
فكرت ألتمس الخلاص بحيلة
أين المفر من القضاء الآتى

***

ويحى أيعترض القنوط عزيمتى
والحزم من طبعى ومن عاداتى
والدهر طوعى والزمان مصادقى
والصبر درعى والثبات قناتى
وتمر بى شتى الحوادث خشعا
ويصيبها خور حيال ثباتى

***

يا أيها القدر الموافى اننى
بادى الضنى هلا ترى نظراتى
امنن على بساعة أقضى بها
حق البلاد وخذ ربيع حياتى

ان كان فى الأجل المقرر فسحة
أو لا ، فانك نافذ الطعنات
مالى اليك وسيلة أرجو بها
نيل المرام ، فجدت بالعبرات
لكننى فرد ولست بأمة
من لى بمن يصغى لحر شكاتى
من لى بشعب نابه متيقظ
ثبت الجنان وصادق العزمات
من لى بشعب عالم متنور
يسعى لهدم رذائل العادات
من لى بشعب باسل متحمس
حتى تقوم بأعظم النهضات
من لى بشعب لا يكل ولا ينى
يسعى الى العليا بكل ثبات !

***

ولقد ظل فى سجنه ينفث من قلمه ونفسه ، فتارة يخاطب الليل :

يا ليل حزنك دائم
أدعوك للسلوى فتأبى

يا ليل هـل لك موطن
مثلى قضى قتـلا ونهبا

وتارة يخاطب نفسه ووطنه يحمل نفسه على الصبر والتـأسى :

أنا لا أزال شـقى حبك
هائمـا فى كل واد
زعم العـواذل أننى
أسـلو وأجنح للرقاد
كذبوا وحقك لست أقدر
أن أعيش بلا فؤاد
ولسوف أصبر للمصائب
والـكوارث والعبـاد
حتى أراك ممتعـا
بالعـز ما بين البـلاد

وفى هذه الأزمة الخانقة للنفس والروح يبلغه موت صديقه المرحوم عمر شاكر سـقوطا من طائرة كانت توزع منشورات الملك على بمكة وانتقاد بعض اخوانه

---

(١) وحى الصحراء ص ٣١٩ .

له لركوبه الطائرة فيرثيه بقصيدة باكية يشيد فيها بشجاعته ليحارب بذلك يأسا فى بعض الشباب :

لا يلام الفتى اذا ما تسامى
ثم أمسى على الصعيد ركاما
هكذا الروح للسموات تعلو
(مثلما الأرض تجذب الأجساما)

***

ليس بدعا على الشجاع اذا أقدم
يبغى له السماك مقاما
وآمتطى أصعب المراكب حتى
جرعته الأقدار موتا زؤاما
(كفراش يحوم حول لهيب
أجل ساقه اليه فحاما)

***

أيها اللائم الغرور رويدا
فمهور العلا تكون عظاما
قد يكون الأديب قائد جيش
فترى فيه باسلا مقداما
ويكون الجندى خدن يراع
فيحيى قصورنا والخياما

وهكذا حتى يطلق من سجنه ، وفى نفسه ثورة مشبوبة ، وطلاب للاصلاح قوى والعالم العربى — اذ ذاك — يموج بثورة قلمية ، تصور آلام الشرق وآماله وفى حساسية نفسه ما يستجيب لكل حركة ، فيندفع الى العمل ، وسبيله الى ذلك تأسيس مكتبة عربية تحمل اسمه • ويكون من أول أعماله اصدار (أدب الحجاز) عام ١٣٤٤ وهو صفحة من أدب الناشئة الحجازية شعرا ونثرا ، تولى هو بنفسه جمعه واصداره وتقديمه الى القراء •

(كل ذلك لأول مرة فى التاريخ الأدبى لهذه البلاد بعد فترة طويلة وقرون كثيرة [١] • ليعلم الناس فى هذا البلد وفى خارجه أن هناك شبيبة تحب العلم وتنظر بغيرة نزيهة وحسرة وحزن عميق الى ما يمتع به شبان بقية البلاد العربية من البسطة فى العلم والحصول على ماتتعطر اليه نفوسهم من مناهله العذبة وهم محرومون مطاردون مضروب على أيديهم ومحول بينهم وبين طلبتهم وغايتهم بسد منيع ، لا تستطيع حيلهم أن تصل بهم الى غايتهم والى ما يريدون ويؤملون [٢] •

(١) و (٢) أدب الحجاز ص ٥ •

ولتعرف (ان هنا شبيبة تريد ولا يمنعها من ارادتها شيء أن تأخذ حظها وحقها ومكانتها فى الوجود ككل أمة تشعر بكرامتها ، وتشعر بقوميتها ، وتحتفظ بمقدراتها ومفاخرها وارثها القومى بين الأمم)[1] .

وان يدل بصفة عملية على وجود حياة — ولو كانت كحياة الطفل أول استهلاله وشعوره بالحياة — فى هذا البلد ، وفى هذا بشرى وغبطة للمخلصين [2] .

وفى عام ١٣٤٥ هـ تولى ترتيب وجمع واصدار (المعرض) وهو جماع آراء شبان الحجاز فى اللغة العربية . استجابة منه للمناقشات القلمية بين أنصار اللغة وأعدائها خارج الحجاز كما أصدر فى نفس العام كتاب (خواطر مصرحة) للأستاذ حسن عواد وهو مجموعة مقالات فى الأدب واللغة والاجتماع والنقد ، مصدر بكلمة من قلم صاحب ترجمتنا تكشف لنا عن أغراضه من اصدار هذه الكتب سماها (كلمة الشباب) — يقول فيها — :

«لقد طلع الفجر فاستيقظنا ، ونادانا الواجب فلبينا ، وبدأنا نسمع صوتنا لمن أنكرنا وصرنا نكتب ونشعر ،

---

(١) و (٢) مقدمة أدب الحجاز صفحة ٦ و ٧ .

نكتب لنعلم كيف نكتب ، ونشعر لنعلم كيف نشعر ، وانا كما قال ولى الدين لسنا متجاوزين حـدا من حدودنا ، وما فينا من يطمع طرفه الى فائدة خاصة ينالها انّ نحن الا أبناء وطن نريد صلاحه ، نسعى لنقيم العدل فننزع الى مكارم الأخلاق[1] » .

هذه الحركة الأدبية الناشئة التى تصورها الكتب الثلاثة — كانت ولا شك بداءه — منطقية لما وليها من حركات وحيوات شـتى ، فهى الشرارة الأولى التى انطلقت فأصابت مكامن الشعور وكهوف الاحساس بما أفاد الحيـاة ودفع الشباب الى طلب الاصلاح ، والنهضات فى الأغلب الأعم تستبق بحركات أدبية ، تخلق الأحاسيس الثـائرة والعقول المفكرة ، وترج الأفكار الصلدة ، فتهيؤها للحياة الآتية بذلك تكون الاستجابة للأفكار الجديدة والحيوات الحديثة التى تفرضها طبيعة العصر كاملة موفورة ، ولقد نشرت قبل سنوات مضت مقالات تحت عنوان«عصران وأمل»..
جاء فيه ! :

ان أول دليـل عملى على عودة الروح الحية الى الشباب الحجازى — والشباب دائما مركز الحياة فى

(١) تصدير خواطر مصرحة ص ٤

الأمة—صدور (أدب الحجاز) و (المعرض) و (خواطر مصرحة) وماوليها من ثورات قلمية طالبت باصلاح المجتمع ، وتمخض عنها—ولا شك—بعض مشروعات أفادت المجتمع وركزت فى دماغه لونا من الحياة جديدا) [1] .

ولقد كان اصدار هذه الكتب الثلاثة آخر أعماله الأدبية فى هذه الفترة من تاريخ حياته التى كان يشغل فيها وظيفة معاون أمين العاصمة كما جاء فى كتاب وحى الصحراء وهى المدة التى تنتهى بعام ١٣٤٥ هـ .

وفى أوائل عام ١٣٤٦ هـ نفى الى الرياض بتهمة سياسية وبقى هناك الى موسم عام ١٣٤٧ حيث عفى عنه ، وبهذا يكون قد ظل فى منفاه للمرة الثانية اثنين وعشرين شهرا .

وكان الظن أن نجد بجريدة أم القرى الأسباب الرسمية للاعتقال ، ومبررات العفو ، ولكنا لم نجد بها ما يشير الى الاعتقال وأسبابه وكل الذى وجدناه هو

---

(١) صوت الحجاز ممتاز عدد ٣٤٠ .

خبر عودته من الرياض بمعية جلالة الملك فى موسم عام ١٣٤٧ [١].

ولسنا نستطيع الحديث عن هذه الفترة الحزينة من حياته ، لافتقارنا الى مصادر الحديث عنها ، وعوزنا أسباب الاتهام ومبررات العفو ، وأحسبه سببا واحدا يجمع كل الأسباب ، هو هذه الحيوية الفياضة ودؤوب الحركة ، وما تتناقله الأحاديث عن أمانيه وآماله نحو وطنه وقومه ، وعما قد تجر اليه أمان كهذه من تدابير سلبية تتجه ضد السياسة المرسومة .

ولم يكد يصل الى وطنه الحجاز بعد العفو عنه ، حتى أخذ يشتغل بالأعمال التجارية ، ولا نعلم من كنه هذه الأعمال سوى عمله بشركة القناعة ، وهى (شركة مواصلات السيارات — بين جدة ومكة والمدينة) وظل فى أعماله ما يقارب من ثلاث سنوات لم يشغل عملا حكوميا طيلة هذه المدة الا ما جاء بجريدة أم القرى من انتخابه عضوا فى المؤتمر الوطنى المنعقد فى محرم عام ١٣٥٠ [٢] ان صح أن أمثال هذه العضوية مما يعتبر عملا رسميا .

(١) أم القرى جلد ٥ عدد ٢٢٨ فى غرة الحجة عام ١٣٤٧

(٢) أم القرى جلد ٧ عدد ٣٤٣ فى ٢٤ صفر عام ١٣٥٠

بعد الاستقرار

شك واستسلام

تحدثنا فى أوائل الفصل السابق عن قلق الشباب ، وعدم اطمئنانه الى العهد الجديد ، وتطلعه الى الواقع بعين حائرة ، تعبر نظرتها عن مدى الانفعالات التى تصطرع فى نفسه قوية فاترة ثائرة هامدة ، ولئن كان قد رأى أن الحكومة بدأت أعمالها — كأية حكومة جديدة — بعلاج نظم الادارة التى تهيمن عليها ، الا أنه بدأ يحس أن هذا العلاج قد استتبع اصلاحا عاما ، شمل تنظيم التعليم ومرافق حيوية أخرى ، ولكنه رغم ذلك ما يزال مدينا لما يصطرع فى نفسه بعامل القلق الخفى ، والحكومة الجديدة تعرف ذلك وتتحسسه ، وقد أخذت فعلا على ازالته بأساليب مختلفة ، قاصدة بذلك ادخال الطمأنينة الى النفوس المستريبة ، فآمن من آمن بصلاحها واندفع الى العمل معها ، وظل من ظل على تشككه وقلقه ولكن السنين القليلة التى جاءت

أثر ذلك كانت كافية لأن تأتى على البقية الباقية من ريبة المرتابين وجزع الواهمين ، بعد أن أخذت المقارنة بين العهد الجديد وسلفه سبيلها الى الفكر الحر ! .

لقد وجد الشباب أن الحكومة الجديدة قد أخذت على نفسها الاصلاح ، ولاقت فى ذلك كثيرا من العناء والمشقة ، فسهلت المواصلات وأفادت من آخر محدثات الصناعة ، وبعثت أفرادا من الشباب الى مصر للتعليم فى مدارسها ، فكانت أول بعثة علمية من الحجاز الى مصر ، وانضم اليها بعض الهاربين الى مصر فى عهد الحكومة السابقة للتعليم على حساب ذويهم وآلهم ، كما وجد الشباب نفسه حرا يكتب وينشر لا تعارضه الحكومة فى طبع مؤلفاته ، كما وجد أن فى تصحيح العقيدة الدينية انهزاما لجراثيم الرجعية ، وهدما لكثير من التقاليد والعادات الفتاكة ، فهو اذن قد وجد نفسه يتنفس فى أجواء صالحة لتحقيق أمانيه ، فلماذا لايشترك فى هذا الاصلاح ويعاون فى سبيله ؟ ومن هنا بدأ يتحول الاضطراب والقلق فى نفوس الشباب الى استقرار ، كان فى أول الأمر استسلاما لمنطق القوة وفشل المحاولات السلبية ، ولكنه عاد يتخذ صبغة

العقيدة المؤمنة التى تنم عن الاخلاص ، والاستجابة العقلية لحركة التطور الجديد .

ومحمد سرور الصبان على رأس هؤلاء كان من أعنفهم سلبية ، ولقى فى سبيل ذلك ما لقى من سجن ونفى ، ولكنه عاد فاطمأن الى الحياة الجديدة بدوافع من ايمانه بالأصلح والأنفع لأمته وبلاده ، وقد أشرق فى نفسه أمل جديد يتطلب سبيله الى خدمة بلاده وفكرته .

وبهذا انتهى ذلك الجانب السلبى من تاريخ جهاده ، وأسدل الستار على آخر فصل من فصول قصة حياته القاتمة المليئة بالمفزع والمرعب ، ذلك الجانب الذى يصوره بقلمه فى مطلع بداءته فيقول :

« لم أكن فى حياتى سعيدا قط ، بل بالعكس كنت معذبا ، ولا أزال متألما ولا أدرى هل كتب لى فى صفحة القدر أن أتمم ما بقى من عمرى كما أمضيت الشطر الأول منه ، أو أن هناك حياة سعيدة تنتظرنى من وراء حجب الغيب ، على أنى فى كلتا الحالتين لا أشعر الا بالألم ولا أعيش الا به ، وليس للآمال عندى مجال ولا مطمع »[1] .

(١) أدب الحجاز ص ٨٠

فى غمار الحياة

كفاح وانتصار

فى صفر عام ١٣٥٠ تعين رئيسا لقلم التحريرات بوزارة المالية ، وفى عام ١٣٥٢ تعين مديرا عاما لادارة الوزارة المذكورة ، ولا يزال كذلك حتى يوم كتابة هذا المفصل .

ولسنا فى معرض الدراسة المستوفاة لأعمال وزارة المالية ، والتطور الادارى فى الوزارة ، وليس من الحق فى شىء أن نربط شيئا من ذلك بتاريخ حياته لنثنى عليه أو ننقده ، فمن فوقه ومن تحته موظفون مسئولون ، لكل منهم نصيبه المحدود فى أعمال الوزارة ، وصحيح أنه لا يتم شىء الا بعلمه واطلاعه بحكم مسئوليته الرسمية ، الا أن العارفين بطبيعة الأعمال الرسمية يقدرون أن المدير أو الوزير يجيز أكثر الأعمال فى وزارته أو ادارته على مسئولية غيره من الموظفين ، والا استحال عليه انجاز أعمال الوزارة أو الادارة .

فاذا كانت وزارة المالية قد تطورت فى شتى نواحيها الادارية والمالية ، فان ذلك نتيجة جهود مختلفة ، تبدأ بسعى وزير المالية الدائب، ولمدير المالية فيها بعد نصيب كبير ، ولكن لغيره من الموظفين أنصبة من تلك الجهود، وان تباينت قوة وضعفا ، ولكن أحدا لا ينكر نشاط محمد سرور فى مركزه هذا ، وفعاليته القوية التى كان يدير بها المركز نفسه ، ولباقته الفكرية والرسمية ، ومواهبه التى تتمثل فى سرعة خاطره وحسن تصرفه وتدبيره وفى بديهته المرتجلة لكل مشكلة حلها .

كل هذا أتاح له فرصة الظهور والتمتع بصيت قوى ، أخذ بالتدريج يخلق له الشخصية الكاملة التى طغت على شخصيات أخرى كثيرة دون أن تلاشيها ، كما أتاح له ذلك أن يكون مورد الحاجات والرغبات والآمال ... ومن هنا قصده القاصدون وارتاده المرتادون ... وهو معهم لا ينى يحقق ما يريدون أو بعض ما يريدون ... يمنح هذا عملا ويعطى ذاك حسنة ، ويجود على الآخر بالمعذرة التى تبقى على أمله، ومن هنا كانت الفترة التى جاءت بعد دخوله وزارة المالية نقطة التحول فى مجرى حياته ، فيها بدا اشراق نجمه وتلألؤه ، واتساع سلطانه ، وتفتح أبواب الانتاج

والأعمال أمامه ، وكان ما قلناه فى بدء كلمتنا من أنه أصبح رئيسا لكل حركة يراد منها تدعيم أو انشاء مظهر جديد يبين عن حيوية الأمة ، فهو رئيس جميع الشركات العربية والاقتصادية التى تألفت لخلق حياة اقتصادية فى البلاد ، سواء فيها السيارات أو التوفير والاقتصاد ، أو الطبع والنشر أو الصادرات ، وهو رئيس جماعة القرش والدفاع عن فلسطين وجمعية الاسعاف .

وبعض هذه الشركات والجمعيات لا يزال قائما يعمل فى نجاح مستمر ملموس تحت رئاسته أو استشارته ، وبعضها أخفق وانطوى كما تنطوى الصرخة المدوية فى قبر أوجب أو فضاء لا حد له .

وما بنا من حاجة الى التحدث عن سر نجاح بعض هذه الشركات والجمعيات ، مما هو معروف لدى كل من له به اتصال مباشر أو غير مباشر ، ولكن الحديث عن سر اخفاق ما أخفق من الشركات والجمعيات وان كان يرجع الى بعض تصرفاته الخاصة بعض الشىء ، فانه يكشف لنا عن نتائج التخالف الفكرى والنفسى والتجاذب الذى بينه وبين مشاركيه فى تلك الأعمال التى أخفقت ، كما يكشف لنا — مع الأسف — عن

الطبيعة الحجازية ومدى استعدادها للتعاون والتضحية بأنانيتها وذاتيتها فى سبيل الاصلاح ، والحديث عن هذا كما يمس صاحب ترجمتنا فانه لا يعفى أحدا من الشباب ، من الذين اشتركوا معه فى اقامة صرح تلك الأعمال التى أخفقت .

وليس من شأننا أن نفتح مسارب الآلام ، وان كان من واجبنا أن نشير اليها كحقائق تاريخية ، اقتضاها البحث وجر اليها الكلام .

وعدا هـذه الأعمال الاشتراكية الجماعية ، فانه أصبح مستشار الأفراد والجماعات ، فما يكاد أحد يفكر فى عمل ما حتى يجد أنه مدفوع الى استشارة محمد سرور والاتصال به ، وفى استعداده العصبى ومزاجه الهـادىء ما يغـرى أولئك وهؤلاء بدوام الاتصال به واستشارته ، وانى لأحسبها ضرورة لابد منها له ، اسـتحالت الى دمه وروحه لذة استغراقية لا لغوب فيها ولا تعب الا بمقدار ما يستشعره أحدنا من تعب أو سأم أثناء لذة استغراقية فى لعبة متداولة ، وهواية رغيبة يجعل منها تسليته وسبيله فى قطع الوقت وازجاء السمر .

وهذا المزاج يعطينا التفسير الضرورى لخلة واحدة، فيها توضيح لجميع ما أصابه من ظروف سيئة ، وجميع ما ناله من مكاره ، تلك هى توفر الحساسية الاستجابية فى نفسه سواء فيها ما كان استجابة لظروف محلية أو ظروف خارجية .

وخير مثل نضربه دليلا على اعتمال الاستجابة المحلية فى نفسه ، كلمته فى تقديم (نفثات من أقلام الشباب الحجازى) التى كتبها فى ١٣٥٥/٢/٤ ففيها ايمان بفكرة الحياة الواقعية فى بلادنا ، وفكرة الحياة العربية العامة ، وما نسميه اليوم (الوحدة العربية).

... وفى الكتاب اعتزاز بالحجاز وافتخار به ، ودعوة الى نصرته ، ومع اعترافنا بما للوطن المركزى من حق ، فان الدعوة الى الاعتزاز بالوطن العربى اليوم والافتخار به ، والدعوة اليه ، والتعارف مع شعوبه ، هو الأمر العظيم الذى يجب أن ندعو اليه ، وأن نعمل له ، فان تيار الغرب الجارف وتكالب الأقوياء على الضعفاء ، تركا الشرق أمام خطر داهم لا يدفع الا بالتكاتف والتعاضد ، وتشكيل جبهة قوية باتحاده ازاء الأقوياء .

فكان بذلك أول صوت ارتفع من بلادنا بفكرة الوحدة العربية قبل عشر سنوات ! .

كما وأن خير مثل نضربه لاستجابته للظروف الخارجية ، هو هذه الحركات الاقتصادية التى مثلتها الشركات العربية وغيرها ، ولئن كان بعضها بدافع الضرورة الموضعية ، الا أنها جميعا كانت مسايرة للحركة الاقتصادية التى سادت العصر فى السنوات الأخيرة ، وحمل لواءها فى مصر طلعت باشا حرب — عليه الرحمة — وصاحب ترجمتنا ، وقد استجاب لحركة القوميات وروح الوطنية اللذين مثلهما سعد فى مصر ، كان لابد له من الاستجابة لطلعت حرب ، وكان لابد لهذه الاستجابة من شركات ومشاريع وجماعات .

وغرضنا من تأكيد هذه الظاهرة النفسية والخلة الغريزية فيه ، هو ابراز ما لهذه الحساسية الاستجابية من أثر فى حياته خاصة ، وفى الحياة الحجازية عامة .

وعندى أن صاحب هذا المزاج يعيش فى ثورة استمرارية بين نفسه والحياة الخارجية ، يريد أن يعمل كل شىء ، وأن يحقق كل ما يريد ، فيندفع الى لون من العبقرية الاتباعية ، ليبرزها الزمن بعد ذلك فى لون من ألوان العبقريات الابتداعية .

والعبقرية — كما يقول علماء النفس — فكرة فى الصبا تبرز فى نضج العمر ، ولكن صاحب ترجمتنا كان — مع هذا — ثورة فى الصبا نجحت ولا تزال تحاول أن تنجح بالزمن .

كان ثورة فى صباه ، وثورة فى شبابه ، مارس العمل صغيرا بيده ، ومارسه يافعا وشابا بفكره وقلمه ، تزعم الثورة الاجتماعية فى حياة التقاليد الحجازية على عهد الحكومة السابقة ، وطالب باصدار صحيفة ومجلة ، وغشى الأندية والمجالس يحذر وينبه ويدعو ويطالب ، فجمع من حوله الشباب والأدباء ، وطبع — على عهد الحكومة الحاضرة — كتبا وجمع آراء هى ولا شك تاريخ الثورة الفكرية ، كما هى تاريخ انتاجاته الذهنية ووثباته العقلية ، فصح له فى حياته مالا بد منه فى حياة الثائر ، فماذا كان ؟ نفى وسجن ثم عاد الى حياة العمل الحر ، فكان فى كل دور من أدوار حياته يمثل لونا من ألوان الثورة ، حتى اذا دفع الى حياة الوظائف ، وليست الوظيفة جديدة فى حياته ، فقد كان موظفا فى مقتبل شبابه كما عرفت ، عرف أن هـذه فرصته ، ان هو استقبلها بالعزم المصمم والفكرة المرتبة ، وان هذا أوان حظه السعيد المقبل ، أن شرب الصاب والعلقم من

ظروف حظه السيىء ، فأخذ يعمل على ضمان مواتاته ، والحظ كما يقول أناتول فرانس فى مباذله أشبه مايكون بغادة حسناء ذات ذؤابة طويلة ، ولكنها صلعاء مؤخر الرأس ، فان استطعت أن تمسكها من ذؤابتها وهى مقبلة ، فقد ضمنت وصلها ومواتاتها فان هى أدبرت فقد أفلتت من يديك أبد الآبدين ، فويل لأولئك الذين يتركون فرصهم المواتية .

وصاحب ترجمتنا لا تعوزه العزيمة المصممة أو الفكرة المبيتة ، والشباب الذين تواتيهم العزائم تمدها العقيدة ويزيد فى وقودها مواتات الفرص وحسن الطالع ، هم الرجال الذين يبنون مجد أنفسهم ، ويضعون لبنة قوية فى بناء مجد أمتهم وبلادهم ان أرادوا .

وهكذا كان محمد سرور ، وللحظ فى حياته حديث يأتى بعد .

بين المد والجزر

صدى الشخصية

أما وقد بدأنا نسوق الحديث الى دور النجاح فى حياة محمد سرور ، فلا بد وأن نشخص أسباب هذا النجاح من مقوماته الشخصية ، وتصرفاته الفكرية أولا ، ثم من ظروف حياته الزمنية والعملية ، لنضيف الى ذلك كله أقوال خصومه عن أسباب هذا النجاح وعوامله ، ونتعرف مقدار الحق والباطل فيها ، وأثر النجاح فى الحياة العامة لبلادنا ، لنستطيع — آنئذ — أن نصدر حكم التاريخ فى محكمة العدالة التاريخية ! .

فى دعكة الميدان الجديد لحياته ، وهو ميدان العمل الرسمى مع أعماله الانشائية الأخرى ، ذلك الميدان الذى احتضنه حتى يومنا هذا ، عمل كثيرا ونجح كثيرا وفكرة واحدة تشرح جميع ما يقال عنه أو يقال فيه ! .

ذلك ان طابع حياته البارز فى جميع أعماله قانون واحد ، هو أن الحياة تجارة فيها الأخذ والعطاء ، هذا القانون الذى أقترع به حقيقة حيوية للحياة نفسها بالنسبة الى الظروف والوسط فى بلادنا على الأقل ، وجعل منه منهج تفكيره ، ومنهج التفكير لشخص ما هو — ولا شك — دستور عقله الثابت ، وان لم يكن مكتوبا حتى ليصبح عند صاحبه عادة عقلية وسلوكا فكريا ، يلزم نفسه باتباعه ولا يطيق مخالفته أو الحيدة عن سبيله ، كما هو نصيب القانون عند القضاة والمحكمين ، كان من أثر هذه الفكرة التى جعل منها دستور حياته ، والتى نستطيع أن نقيس بها جميع تصرفاته ، انه صادق كثيرا وعادى كثيرا ، وقرب بعض أناس حسبهم الناس من ضآلة الشأن والفكر بحيث لا يغنون فتيلا ، وأبعد بعضا آخر ، هم فى حساب الناس مما لا بد منهم لركاز قوته ، لأنهم فى مركز القوة الذهنية ، والتفوق العقلى فى حساب الناس ، ولكنهم فى حساب قانونه ودستور حياته ، ممن يند عنهم القياس ، ويختل بهم المقياس ! .

وهو مع هذا — أيضا — يحاول دائما تقريب مناوئيه والمستائين منه بشتى الأساليب والأفانين ، وانه

ليس فى هـذا اسرافا يكاد ينسيه المخلصين المتعلقين بتبعيته ، وأحسبه أضاع كثيرا من هؤلاء ، لأن منطق تفكيرهم لا يحتمل التقـدير المعنوى والاعتبـارى فحسب ، ما دامت الحياة أخذا وعطاء .

ومهما يكن فى حياته من تصرفات تمدح وتذم ، فان فى قانونه حصنا يجعله — دائما — راضيا عن تصرفه ، مطمئنا الى عمله ، مقتنعا بصوابه ، شـديد الاعتقاد بخدمة وطنه وبلاده ، لأن جميع ذلك لا يخرج به عن قانونه ودستوره ، وهو قد جعل من القـانون عقيدة ما تزلزلها أقوى العواصف وأشـد الأنواء ، وليست هذه العواصف وتلك الأنواء بأكثر من ارعاد وابراق توهم ولا تفعل ، وتوعد ولا تنجز ، ولا شىء بعد ذلك ! .

وكل شىء يأتى بعد هذا من أسباب نجاحه ، فهو انما يأتى لتفسير قانونه وتثبيت دستوره وتوكيده ! .

فهو دقيق الاحساس بميل الجمهور ، يعرف كيف يتألفه وكيف يصطنعه ، لأن فى طبيعته الكرم ، والكرم الى حد الاسراف ، وهو كما يقول عن نفسه صادقا فى قصيدته (عاطفة النفس) :

واذا همت كفى لطالب فيضها
غمرته بالأنعـام والحسنات

أو فى قصيدته الحكيمة (كنصيحة الى أبناء الغد) :

فكأنى حـاتم فى قومـه
أنفق الأموال فى وجـه قمين
يلهج النـــاس بشكرى دائما
ويعيشون بفعـــلى آمنين

والجمهور لايتطلب من العظيم أكثر من هذا ، وبه وحده يستطيعون معرفة الطريق الذى يريده لهم .

وانى لأعرف من هذا الشيء الكثير ، وما هو أدخل فى باب الكرم الغريب ، ولولا أن أحـدا لا ينكره لسقت الحوادث التى تضيق بها الصفحات ، وأن عوائل وشبانا تقوم حياتهم على ما يصيبون منه ، وهذا الذى وصفت طبيعة يؤذيه أن تذكر عنه ، فلقد نشرت مرة فى أسلوب استعراض اجتماعى كلمة تحت عنوان (أين كنت اليوم ؟) جاء فيها :

ليس فى اسمى ولا (خلقتى) ما يشبه حاتم الطائى أو محمد سرور الصبان ، فلا أكاد أخرج من دارى حتى يتعقبنى الفقراء والمعوزون ، فما كاد يقرأها حتى نقل

الى سكرتيره (مستسره) غضبه ، وعدم رضاه وشدة انفعاله .

ومع هذا فالحديث عن كرمه حقيقة واقعية يعرفها كل أحد ، ولا ينكرها مناوئوه وان كان لها عندهم تفسير خاص لا تجد من يوافقهم عليه .

وفى طبيعته حب المعونة للشباب الناشىء ، وهؤلاء لا يتطلبون (فى بلادنا) أكثر من الوظيفة ، نتيجة ضيق المجال الحيوى ونقص التعليم ، واستعجالهم الحياة من أقصر الطرق ، وتعلقهم بمظهر الوظيفة وسمعتها .

وما دام فى منهج تفكيره الأخذ والعطاء ، فهو مستطيع أيضا ضمان الخاصة ومن يشاركونه تصرفات الدولة ، بل انه ليكون دائما معهم فى موقف المتفضل بالعطاء ، ثم فى أخلاقه سماحة وفسحة صدر ، وأنه ليبتسم وفى صدره مرجل يغلى ، وأن داره لتموج بالناس وطلاب الحوائج ، وهو فوق كرسيه يبسم للجميع ، ويجيب على الهاتف ويصغى للمحدث ، ويصدر أوامره ويقضى طلبات زائره ، وان دقائق بسيطة فى داره أو مكتبه تريك أنه من أصبر خلق الله على خلق الله ، الزائرون المرهقون والمتحدثون ،

والموظفون الذاهبون الآيبون ، وطالبوا الحديث على انفراد ، ويوم بعد يوم وليلة بعد ليلة على هذا المنوال.

ثم هو بعد لا يرفض طلبا قط ، وفى هذا ضمان لهواة الوعود والرسميات ومن يخشون الفزع فى آمالهم ، ومن يحبون أن يروا فى بيوت العظماء وعلى صلات قوية بهم .

وعدا كلما تقدم فانه يعمل فى أناة وصبر ، يقول من يعرفه قبل عهد الادارة الرسمية انها جديدة عليه ، ولا بد أن تكون كذلك ، فأكبر الظن أنه كسبهما من مراتته الادارية .

والصبر والأناة يتركان للانسان اختيار الفرصة التى يصل فيها الى غاياته ومقاصده .

ولقد يبدو غريبا أن تصطلح فى نفسه طبيعة الصبر وحب الأناة ، مع ما وصفناه به من توفر الحساسية الاستجابية فى طبيعته ، ذلك لأن أولى سمات التجارب بين الأفراد والحيوان ، السرعة والتعجل ومتابعة الفكرة وتقليد الحركة ، أو ما يصح أن نسميه هنا (عدوى تثاؤب الحياة) فليس يلزمك الوقت الطويل لانتقال عدوى التثاؤب اليك ممن أمامك .

أضف الى ذلك طبيعة الثـورة المنطوية عليهـا (كهوف نفسه) فكيف صح له هذا المزيج من النقائض.

ان الذين يعرفونه ، يعرفون له خصلة واحـدة فيها كل التفسير الضرورى لهذا التناقض المتبادل ، تلك هى (الفراسة) فهو يستطيع أن يقرأ فى وجوه الناس ما يختلج فى صدورهم ، ويستبين فى عيونهم ما تخفيه سرائرهم ، وبذلك — وحده — يستطيع أن يلبس لكل حالة لبوسها ، ويعطيها الموقف اللازم لها ، من الأناة والسرعة والصبر والتعجل .

وشىء آخر هو أن طبيعته الاستجابية انما يكثر ملاحظتها ، ويبدو بروزها فى مطالب الحياة العامة للأمة من حيوات أدبية واقتصادية وما أشبه ذلك من حيوات (مثالية) للأمم والزعماء خارج بلادهم ، ولا حاجة له — بعد هـذا — الى تلك الطبيعة فى معاملة الأفراد والجماعات فى بلادنا ، لفقـدان المثاليـة فى هؤلاء الأفراد والجماعات .

وطبيعة الصبر والأناة عنده تبين عن ناحية لا بد من الحديث عنها ، ونعنى بها نضاله مع الأفراد والجماعات فى هذا الدور من النجاح .

ذلك أنه يحاول دائما أن يصل الى مطالبه من الحياة والأشخاص من طريق التفاهم والاتفاق ، والا فالنضال طريقه وسبيله الى غاياته ، فهو لا يترك فرصة تسنح أو غفلة من خصمه تلوح حتى يندفع الى اقتناصها فى هوادة وأناة ، فهو يضرب بكلتا يديه ليأخذ خصمه من كل جانب ، ولكنه دائم التقدير لقوة خصومه ولو لم يكونوا جديرين بهذا التقدير ، ولذلك تجده لا يخاطر بكل أسلحته ، بل يحاول دائما أن يكسب بالزمن أيضا ما يستعين به على النصر ، فهو وان ظن أنه يلقى بكل شىء فى سبيل النصر ، الا أنه لا يلقى البيض كله فى سلة واحدة كما يقول الفرنسيون ، لأنه يحذر سقوط السلة من يده ، فهو لذلك يبقى على خير ما عنده من أسباب النضال ، لأنه يقدر صمود الخصم وطول النضال .

وهو يعد كل هذا دائم الاستعداد للتفاهم والاتفاق ، حتى فى أشد ساعات النضال ، لأنه يعتقد بصدق (ما أقصر العمر حتى تضيعه فى النضال) كما يقول عبد الوهاب فى أغنيته وأحسبه يتخذ من هذا النصر سبيله وسلاحه الى نصر آخر وظفر جديد .

هذه هى أسباب نجاحه فى جملتها وتفصيلها ، وهى

أيضا بعض طرائفه فى حديثه وحواره ونضاله ، ولن تتم الصورة التى نحاول أن نصورها لحقيقته بغير أن نصور لك طريقته مع طلاب الحاجات والاستشارات، لعل فيها تكميلا للصورة المبتغاة ، وهى احدى طرائفه التى تدل على فهم الجمهور • والناس وتؤكد لك فوة فراسته) •

هو مع هؤلاء لا يصادم محدثه بما يكره ، ولا يلقى عليه ما لا يتفق وهوى نفسه ، ولا يرفض له رأيا لأول ما يراه ، بل انه ليقبل على الرأى ويبدى قبوله له ، ولعله يمد لصاحبه فى تقدير النتائج التى تجنى من ورائه كما يمد لخصومه ، حتى ليحسب صاحب الرأى أن محمد سرور أكثر ايمانا منه برأيه ، كما يحسب خصومه أنه فى غفلة صادرة عن كل مايدبرون ويبرمون، وهو فى طويته قد لا يرى ذلك ولا يؤيده ، لكنه يريد من محدثه أن يكون متعلقا به ، ومن خصمه الاطمئنان الى جهله ليتجه بعد ذلك بالرأى أو الخصم الى ما يريد، واذ تأتى الفرصة التى يريدها صور لمحدثه أنه يريد الانتقال من الرأى الحسن الى الرأى الأحسن ، فان لمح الاصرار والتوقف — وهو لماح قوى كما تستلزم الفراسة — ترك الباب مفتوحا لاستئناف الحديث

والمناقشة ، وأغلب أمره آنئذ الأرجاء وانتظار الفرصة ، وانك لتظن فى كل هذا أنه ينزل عن رأيه الى رأيك ، وهو فى الواقع انما يحاول استخراج طريق جديد لمبتغاه ، فان وجده واقتنعت به كما هو الأغلب الأعم فقد وصل بك الى الغاية ، والا فالباب مفتوح على مصراعيه للحديث حتى تأتى الظروف بالمخرج المقنع ، وليس عنده بعد هذا مشكلة لا تقبل الحل .

بين الحياة والأدب

للرجل الذى تتحدث عنه مميزات وخصائص ، بعضها كان الباب الذى نفد منه الى حياته الحاضرة ، وبعضها الآخر وليد هذه الحياة فى واقعة اليوم ، وما تزال مجموعة هذه وتلك تدفعه وتستحث خطاه فى سبيل غايته ، فلا بد والحالة هذه من أن نستكمل البحث بالتحدث عن أبرز هذه المميزات والخصائص .

وأبرزها عندنا هو الاتجاه الأدبى الذى انساق اليه محمد سرور فى فجر حياته ، ولسنا نشك فى أنه مدين للأدب — بعض الشىء — بواقعه العظيم .

فهل استطاع أن يوفى الأدب حقه ؟ .

لقد أتاح للشبان المتأدبين أو لبعضهم على الأصح فرصة الحياة الرسمية التى تضمن حاضرهم ومستقبلهم ، وأسدى الى الكثير منهم أيادى لا ينكرونها ، ولكن ذلك كله لا يعنى وفاء ما للأدب عليه ، وانما يعنى الوفاء لجماعة من الناس .

انما يوفى الأدب حقه بتشجيع حركته وبانماء حيويته وقيادة اتجاهه ، واغراء الأدباء بما يضمن له المدى الواسع الذى ينطلق بعده صداه فى أفق رحيب .

ولا ننكر أن له المعذرة فى عوامل كثيرة ، ولا ننكر أنه ساهم فى كل الحركات والمشاريع الأدبية التى صخبت بها البلاد فى فترات سابقة ، ولكن ذلك كله لا يعنى — ونقولها صريحة — ان محمد سرور وفى الأدب حقه ، وتلك حقيقة واقعية لا شأن لنا بمعاذيرها ، أو بما يلطفها بعض الشىء .

على أننا اذا أردنا أن نأخذ محمد سرور الأديب بكلمة نقد منصفة ، لا يسعنا غير أن نقول انه لم يعد أديبا — كما كان — وان كان صاحب فكر أدبى وذوق فنى ... لأنه — فى الأغلب والأعم — لم يعد يستطيع الكتابة الفنية والنظم ، بحيث يوضع فى المستوى الفنى اللائق بمركز الأديب .

وقد يكون صاحب ملكة مطوية فى ملكاته وأعماله الرسمية التى أتت عليه ، ولكن المستور والمطوى لا شأن للباحث به فيما يستره من أحكام ، كما لا يبعد أن يكون ناقدا ، ولكنا نتلمس لهذا الناقد آثاره الفنية فى النقد الأدبى فلا نجده .

وليس هذا شأن محمد سرور ، ولكنه شأن أغلب الرعيل الأول ومن كانوا فى طبقته ، ولقد قلنا فى مقدمة بحثنا اننا عندما نلتمس هذه الروح فيما أنتجه أولئك النفر ، لانستطيع أن نتساهل فى الحكم على ضعفها واتجاهها الى طريقة لا تكاد تمتاز عن طريقة الانشاء المدرسى الا بتساهل كبير ، ورغم ذلك فان هذه الروح التى تمثلت فى محمد سرور وزملائه على ضعفها ، كانت الصرخة التى استثارت حيوية الفكر الحجازى بعد اغفاءته الطويلة ... ولا يستطيع الباحث اذا تلمس الاتجاه القوى الذى انساق اليه فيما بعد الشباب ، الا أن يقدر الأثر الحى الذى كان من خلق تلك الجماعة منذ أن تمثل فى اتجاهها القديم .

وما بى أن ألتمس الأمثال لذلك ؟ فيما أنتجته هاته الجماعة ، وفيما أنتجه محمد سرور ، ففى أدب الحجاز وهو الكتاب الذى مثل خير انتاجها السابق ، ما يشير بصراحة الى أن هنا جماعة تتذوق الأدب . ولما تقو على انتاجه قويا مبدعا بعد ، وقد مر بك فى هذا الكتاب من أدب محمد سرور صورا مختلفة من الشعر والنثر ، نقلناها كما هى من كتاب أدب الحجاز وغيره .

وأكثر ما تتناوله هذه الصور ان لم يكن كل

ما تتناوله هو التنادى بالاصلاح لجميع مرافق الحياة ؛ وكل ما يتصل بحاجة النفس البسيطة والبلاد ، دون تعمق أو اشراق بيان .

ويبدو لى أن تطلع محمد سرور المستوفز الى الحياة ، وحرصه على بلوغه غايته منها ، وتفاعل نفسه بتيارات الحياة العامة اذ ذاك ، وارادته الافصاح عن ذلك أعطاه اشراقا بيانيا فى أسلوبه ، كان قمينا أن يصل به الى أوجه ، لولا أن تداخلت حياته بشئون مختلفة ، قعدت به عن البروز الأدبى كل البروز .

ويكفينا فى تأييدها هذا أن نعرض عليك أجمل قصائده فى رأينا وهى قصيدة (ياليل) التى يقول فيها :

يا ليل ما للبدر يم ... رح فى السما شرقا وغربا
يبدو فيضحك ساخرا ... منا وطورا قد تخبا
يعلو على متن السحا ... ب يسوقها سربا فسربا
أتراه يعبث كالو ... لید فليس يخشى بعد عيبا
يا ليل ما شأن الغزا ... لة سيرها تيها وعجبا
سكرى ترنح عطفها ... دلا فلا يستطيع خبا
تخذت لها مهد السما ... ء كمرقص فتدب دبا
طردت اليك بناتها ... فضممتهن اليك ربا

نلك النجـوم المشرقا ت وجوهها بشرا وحبا
يا ليـل حزنك دائم أدعوك للسلوى فتأبى
يا ليل هـل لك موطن مثـلى قضى قتـلا ونهبا

* * *

يا ليـل لو أن الغـزا لة سرها قد كان غيبـا
لم تفش من مكنونها أمرا ولـو لم تأت عيبا
لغـدت بنـا الآمال تضـ رب فى الورى جمعا وصحبا

ومع هذا فقد دل بما أنتجه من نثر وشـعر على استعداد طبيعى للأدب والبروز فيه ، وكان من الممكن أن يكون عظيما فى الأدب لو استقامت حياته للأدب وخلصت له .

والأدب مع هذا هو الشرارة الأولى التى فعلت حياته ، وربطت بينه وبين الحياة العامة ، وكشفت له عن عوالم ما كان لينفذ اليها فكره لو لم يكن أديبا فيما مضى ، والأدب هو من ضمن العوامل التى هيأت فكره ومجموع ملكاته لمصاولة الحياة وانتصاره عليها بعد .

واننا لنلتمس له المعاذير عن تلاشى شخصيته كأديب فى واقعـه ومشغوليته ومشاكله الرسمية والذاتية ، وكثيرا أولئك الذين اتخذوا الأدب سلما الى الحياة ،

حتى اذا ما بلغوها كانت لهم ملهاة عنه ، ولعل ذلك طبيعى معقول بالنسبة لما تكتظ به الحياة الصاخبة من عوامل التسلية والترفية ، وهكذا ورغم كل ذلك فقد أتيح لمحمد سرور الاشتراك فى كل مشروع قام فى هذه البـلاد ، لأن فى الأدب عمومية مطلقة تعطى صاحبها صلاحية تناول الأشياء بفكر منطبق مرتب ، أو كما يقول الانجليز حق التفكير المشترك والممارسة البسيطة لما يتناوله بعد ذلك ، تجعل منه صاحب اختصاص فيه، أما الاختصاص والتقيد بأى اتجاه كان فانه يجعل لصاحبه حـدودا تقيـده وتربط ذهن المجتمع به وباختصاصه ، وليس لصاحب ترجمتنا اختصاص يفرض عليه الوقوف عند موضوع دون آخر ، انما اختصاصه ان صح أن يكون هذا اختصاصا ، الصلاحية المطلقة لكل شىء ، وهذا ما جعل منه رئيسا للشركات المختلفة مع رئاسة جمعية الاسعاف والدفاع عن فلسطين ، على تفاوت ما بينهما من الأغراض والاتجاهات .

فى الميزان
نقد وتحليل

محمد سرور رجل كفؤ على استواء فى الكفاءة لجميع الأعمال ، حتى لكأنه صنع كفاءته بيده وبالمقدار الذى يريده ويراه ، وهذه الكفاءة هى التى أتاحت له الاشتراك فى كل مشروع قام فى هذه البلاد ، وجعلت منه العظيم الملحوظ ، ذلك رأى فريق من الناس .

ومحمد سرور رجل أصاب فرصا وحظا ، وبهما نال ما نال من جاه ومركز ومكانة فى شتى نواحى الحياة ، وهذا رأى فريق آخر .

فأين الصدق أمام الحقيقة التاريخية ، وهل هو عظيم خلقته كفاءته أو خلقه حظه ؟ وقبل أن نجيب لا بد من القول بأنه ليس فى حساب المؤرخين اخضاع بحوثهم لاعتبارات معنوية ، يكون غاية الحديث فيها اصدار أحكام تعوزها الأدلة المقنعة ، والتاريخ يريشه

الخيال ولكنه لا ينقل صورته الصادقة ، وليس من صدق التـاريخ أن يكون ميزان الحقيقة ما يصيب الرجل أو الأمة من حسن الطالع أو سوئه .

وهذا لا يعنى الانكار المطلق للحظ فى حياة الفرد أو الجماعة ، ولكنا نريد به ايضاح مايقسرنا اليوم على بحث الحظ كمادة فعالة فى حيـاة صاحب ترجمتنا ، وقد رأيت أن فريقا من الناس هنا يريد ارجاع كل ما ناله الرجل من نجاح الى هذا العامل الخارج عن مقومات نجاحه المادية ، فما هو مدى هذا العامل فى نجاحه ؟ .

فى حياة كل انسان فرص وتوفيقات ، وليس من شك فى أنها تتباين فيها النسب بين الناس كما تتباين فى جميع المواهب الأخرى ، من فطنة وذكاء وفراسة وقوة ذاكرة ، الى آخر ما يعطاه الانسان من مواهب ، ولكنه يبقى بعد ذلك كله عمل القوى المفكرة التى تستطيع أن تستكمل نقائصها بمكملات ثانوية ، من مواهبها الأخرى ، أو محاولة اكتساب المفقود .

والحظ — فى حقيقته — ليس أكثر من فرص وتوفيقات ، وعمل القوة المفكرة ازاء تلك الفرص هو

اجادة استقبالها ، والعمل على استغلالها ان كانت من فرص الحياة الجميلة ، كما هو الصبر على بلوائها وقسوتها ، حتى تمر العاصفة ان كانت من فرص الحياة السيئة .

وفى حياة كل فرد فرص من حسن الطالع وسوئه ، انما يندب الحياة ويلعنها من ترك فرصة حياته الرغيدة تمر من بين أصابعه ، وهو فى غفلته من السادرين .

وصاحب ترجمتنا رأى من فرص الحياة بلونيها الكثير ، وكانت طوالع فرصه السيئة خليقة بأن تقعده عن طلاب المجد ، وتميت رغائب الحياة ودوافعها فى نفسه ، فقد باكرته فى مقتبل شبابه ، ولكنه صبر فظفر ولقد رأى من هجير الحياة وقيظها ما أغذ به السير الى الظل الوارف والأرض الطيبة .

حتى اذا ما أقبلت فرص حياته السعيدة وحسن طالعه الجميل ، أجاد الاستقبال وأحسن الانتهاز ، فما أحرى أن يكون موضوع (الحظ) فى حياته دليلا على قوة تفكيره واكتمال كفاءته .

فما أكبر ما نال غيره من الجاه والمركز وحسن الأحدوثة وبعد الصيت ، فأضاع ذلك كله عدم التبصر

وغزارة الفكر ، وفراغ النفس من مقومات الشخصية ودوافع الاستمرارية ، كالصاروخ يقذف بالضوء عاليا لامعا ثم ما أسرع ما يخبو لخلوه من الدوافع الاستمرارية فى ذات نفسه .

والعجيب أنا نأسف لحظهم ، ونأبى الا أن نلغى عقولنا ، ونجعل من الحظ قانونا للحياة ومقياسا للتقدم لا تستقيم حياة أحد بدونه ، وما أغنانا — ان صح هذا — عن تاريخ الأمم وتراجم الرجال ، بل ما أغنانا عن التعليم وتهيئة الفكر للحياة ، والسعى فى سبيل الحضارة ، لأن المسألة لا تتطلب — آنئذ — أكثر من انتظار حظنا من الحياة لنأخذ نصيبنا من كل شىء بسببه ، أما الفكر ومقومات الحياة وما يعتمل النهوض ويخلق الحضارات من كل ما تأخذ منه الأمم اليوم بسبب قوى أو ضعيف ، فسوف يجىء مع الحظ ، وما أخال أمة تقوم نظرتها الى الحياة على هذا القانون خليقة بالحياة ومشاركة الأمم فى ميراث الانسانية العام .

وأحسب أن هذا التنادى بالحظ ليس أكثر من معذرة تلوكها أفواه من قعدت بهم هممهم عن التزاحم ، ووسموا حياتهم بالعجز والكسل .

وما بى أن أطيل فى هذا ولكن بى أن أقول أخيرا

ان الحظ فى حياته خليق بأن يكون من العوامل الثانوية فى ازدياد نجاحه وبلوغه طلابه من الحياة ، أما العوامل الأصيلة فى هذا النجاح ، فهى من نفسه وفى شخصيته، فهو فى رأينا عظيم خلقته كفاءته واستعداده ومواهبه ، والحظ مع هـذا عامل قوى فى اطراد هـذا النجاح والموفقيات .

وسواء صح رأينا أو لم يصح ، فان هذه السمة التى جعلت منه رئيسا أو عضـوا فى كل مشروع ، وما أفادته به حياته من ثراء وجاه وعلو مكانة ، فتحت الباب لمناوئيه ومبغضيه للحديث عن أنانيته وأثرته ، فهو عندهم أنانى جعل من الشباب سلما ، ومن الشركات خدعا ، ومن الوظيفـة مرقى وصلت به الى مكانته المرموقة .

ونحن ان قلنا ذلك فقد غفلنا عن أدق دوافع الحياة فليست الأنانية أو الأثرة عيبا فى منطق التحليل الفكرى والنظر الفلسفى ، وانما هى ضرورة لازمـة للأحياء كضرورتهم الى الماء والهواء ، ولا يند شىء فى الحياة عن دافع الأنانية ، وليس هذا جديدا نقوله لنداجى به الرجل أو نحاول طلاء تاريخه ، ولكنه رأى قديم لنا نتيجة نظرة علمية واقعية ، كتبنا عنها قبل عشر سنوات

تحت عنوان (الأنانية المعتدله مصـدر قوة وحياة) ما بعضه :

(فكر أعمق التفكير وأبعده ، تجد أن العالم كله مسوق بفعل هذه الأنانية ، الانسان يحب نفسه حبا يدفعه الى العمل فى سبيلها ومن أجل لذتها وانتفاعها ، وليس ضروريا أن تعلم كل نفس هـذا أو تلحظه ، والناس خاضعون لهذه الأنانية ، يعملون للحياة كما يعملون للجاه والادخار وكسب النفوذ ، من غير أن يدروا ذلك تمام الدراية) [1] .

وأفصح من هذا ما يقوله الأستاذ عباس محمود العقاد فى كتابه (ساعات بين الكتب) .

(... ونحب أن نقول أن الأثرة والايثار خلتان تلتقيان كثيرا فى أجواء العظمة وميادين (المصـالح الكبرى) والعظيم مذ كان عمله يتناول الأمة بأسرها ، أو يتناول الدنيا بجملتها ، يخـدم الناس ويبهرهم ويؤثرهم على نفسه حين يخدم وطره ، ويحرص على انجاز عمله ، فالأنانية هنا قوة تلهب الغيرة فى صدر العظيم لمنفعة الناس لا لمنفعته وهى خديعـة طبيعية

---

(١) جريدة أم القرى جلد ٨ عدد ٦١١ .

تخدعه بها الفطرة كما تخدع الأحياء باللذة التى يجدونها فى تخليد النوع وحفظه من الفناء ... ولو جردته من هذا الخلق لجردته من شىء يتعبه ، وبلغته الراحة التى كانت تعز عليه وحرمت الناس جهده ونصبه الذى كانوا ينعمون به)[1] .

فما كان لمحمد سرور ولا لأى أحد مهما كانت درجته فى الفضيلة الانسانية — عدا الرسل والأنبياء — أن يخدم أمته قبل أن يخدم وطره ، ويحرص على انجازه ، وليس من ذنب محمد سرور — بعد هذا — أن ينجح هو ويخفق غيره ، أو ينقطع بغيره النفس قبل تمام المرحلة ، أو يقف بغيره كلال الذهن وضيق العطن وصلابة الطبع عن ادراك الجاه ورفيع المنصب . ليس كل هذا من ذنب محمد سرور ، وأحرى بذلك كله أن يكون مفخرته لأنه دل به على حياة الأمة وصلاحيتها للمشاركة الأممية العامة .

سيقول أناس وعلامة استفهام كبرى ترتسم على وجوههم : (لقد أخذ الرجل على نفسه تحقيق آمال أمته والسعى بها الى غايته ونفاذه ، فما باله سكن الى حياته الحاضرة وركن اليها .

---

(١) ساعات بين الكتب ص ٢٠١ وما بعدها .

ونحن نستطيع أن نترك ما لقيه الرجل من خصومات ونضال وحسد ووشايات ، وما حققه من أعمال ومشاريع ، لأن ذلك ضرورة من ضرورات الجهاد ولوازم القيادة .

نستطيع أن نترك ذلك جميعه لنأخذ جوابه من منطق الحياة فى واقعها ، لا منطق الكتاب والفلاسفة ، لأن منطق الحياة أقطع بالحجة وأبين للوجهة ، ومنطق الحياة هو ما تنادى به تجارب الحكم وأقوال الحكام ، فاصغ معى الى هذه الكلمة يقولها مولانا الملك عبد العزيز عن سعد زغلول زعيم النهضة المصرية فى حديث له مع الدكتور محمد حسين هيكل رئيس مجلس الشيوخ المصرى الآن :

(يوم علمت أن سعد زغلول قبل تولى الوزارة فى مصر ، لم يخامرنى ريب فى أنه سيضطر الى النزول على حكم الظروف فى أمر الغرض الذى ندب نفسه كى يحققه لبلاده)[1] .

اذن — فللظروف حكمها — وللضرورة قانونها ، فما كان لمحمد سرور حق الافلات من ربقتهما والتمرد

---

(١) مال الوحى ص ١٦١ .

على ما تفرضه الظروف ، ويوجبه قانون الضرورة .

وهذا لا يعنى التخلى عن المطالب ، ولكنه يعنى المرونة الفكرية التى تعرف الملائمات والمناسبات ، وأحسبه كسب بهذه المرونة لبلاده مشاريع وحيوات ما كان بعضها ليتم تحقيقه ويأتى ثمره لو كان السبيل الى طلابه (السلبية الخداعة) التى يعجب بها بعضهم فى كبراء وشخصيات .

وعندى أن المرونة فضيلة يفقدها أولوا العقول الضعيفة والنظر القصير الذى لا يمتد الى أكثر من مدى اليوم وليس للغد حساب بعد عنده ، كأن غاية الشوط فى خدمة بلاده وأمته أن يقول الناس ما أصلبه وأشد تمسكه ؟ ولا شىء بعد هذا تفيد به الأمة فى حياتها العامة وحيويتها ، وأحسبها أنانية بغيضة ، غاية طلابها أن يكون صاحبها محل حديث الناس بصلابته وقوة معارضته ، وأين هذا من مرونة محمد سرور التى تظهر فى ثوب جديد يلائم تفكير العصر وروحه .

ولكننا لا نريد أن يقول من يقرأ ما كتبناه عن محمد سرور أننا لم نرد به غير الاشادة كرجل عظيم فمن حقنا — ونحن لم نكتب عنه الا لغاية البحث — ألا نغفل مآخذ يتشبث بها مبغضوه فيهولون أمرها ويعرفها

فيه محبوه فيتمنون لو تجرد عنها ، لئلا يجد أولئك السبيل اليه الا فى ظلام الحقد المريد .

من هذه المآخذ وعوده التى تقبل الامتداد حتى ينقطع نفس صاحب الحاجة ، ولئن كان فى هذا — كما قلت فى فصل سابق — ضمان لهواة الوعود والرسميات ومن يخشون الفزع فى آمالهم ، ومن يحبون أن يروا فى بيوت العظماء وعلى صلات قوية بهم ، فليس كل أحد هذا اللون من الناس ، ولكنت أوثر أن يكون الرجل بخيلا فى وعوده ، فما أكثر ما أعرف من قصص وحوادث اندفع اليها بعضهم تحت آمال وعوده فأضاعوا واقعهم بخيال صورته لهم وعوده وهو حين يعد صادق — ولا شك — ولكن الزمن فى رأيه أحد أبعاد الحياة الأربعة — كما يقول نيتشه ، وليس كل الناس يؤمن بالزمن .

ومنها أن طبيعة مركزه وما فى طبيعته الخاصة من حب للخير ، فتحت أبوابه للناس حتى عرفوا طريقه وآمنوا بأنه الطريق الأول والأخير الذى يوصلهم الى ماهو مطلوب لهم ، فاعتزاله بعد ذلك واعتذاره عن لقائهم فى الوقت الذى تكتظ فيه الدار بعشراتهم على

اختلاف ألوان حاجتهم ، وعلى ما فى هذه الألوان مما يثير أعمق مشاعر الانسان سبيل لأحاديث كانت ولا بد أن تكون مشرقة لو لقيهم وحادثهم .

ومنها افراطه فى التودد الى طبقة خاصة من الرجال هم كما قلنا فى فصل سابق من ضآلة الشأن والفكر ، بحيث لا يغنون فتيلا ، ولكنه يجعلهم يمشون على أرجل خشبية من صنعه دون طبقات أخرى هى أقرب اليه من هذه ، وهم مما لابد منهم لركاز قوته ، لأنهم فى مركز القوة الذهنية والتفوق العقلى ، وهى بعد محمولة عليه أكثر من تلك مما قد يفسر بأنه لم يعد يطيق احتمال هذه لأنها لا تحتاج الا اليه ، واذا كان قانونه ودستور حياته الذى شرحناه فى فصل سابق ، وهو قانون الأخذ والعطاء ، يندبه عن هؤلاء فهل يكون من الأوفق تعديل هذا القانون فى الدستور ؟ .

ونحن قد نلتمس له المعذرة فى أن طاقته كمدير عام لوزارة الماليـــة وكفعال وكانسان قبل ذلك وبعـــده لا تتحمل جرائر الطريق الذى امتد سبيله اليه ... ولكنا لا نلتمس له المعذرة فى عدم أخذ نفسه بأسلوب آخر يكف عنه ألسنة السوء .

ان فى امكانه أن يضع (لا) مكان (نعم) اذا ما كانت (لا) هى النتيجة المحتومة .

وفى امكانه أن يقول لمحدثه (يتعذر على قضاؤها) بدل اطمئن واصبر — انه ان فعل — فسيكون فى امكانه فتح أبوابه جميع ساعات النهار مع ما يتبع ذلك من تبخر جميع المآخذ التى يأخذها عليه المؤاخذون .

فى امكان كل ذلك ليكون الأول والأول فى نفوس الناس على اختلاف طبقاتهم .

ولكن الكمال ما يزال حلما يتعثر فى خصائص النفس الانسانية ونزعاتها ، مهما كان الشأن رفيعا ... بل ولعل أبرز سمات العظمة فى العظيم لا يتهدى اليه النظر الا بعد أن يلمس أبرز سمات النقص فيه .

اترانا نقول ذلك لنقول بعده ان محمد سرور رجل عظيم ، لقد قلناها مرارا فيما مضى من الحديث ، ويكفى أن نقول انه ناجح ، لنثبت ما قلناه ما دام أمر نجاحه من الوضوح بمكان لا تغرب عنه الشمس ، الا اذا كان لأحد أن يقول ان الناجح ناجح فحسب ولكنه ليس عظيما ، على كل حال جواب هذا عندنا أن نتخذ منه دليلا على مدى تأثير الفهم البدائى فى اصدار الأحكام وتقديرها .

ونضيف الى ذلك أن لنجاح محمد سرور — ككل نجاح آخر — أثرا قويا فى تكييف بعض نواحى الحياة عندنا ، ولسنا نحاول تتبع هـذا الأثر ، ولكنا نلفت النظر الى أدق مظاهره .

فلقد أقام — هذا النجاح — للحياة مفاهيم جديدة وركز فى أدمغة الشباب « مثالية » حيوية نلحظها فى مطالب الشباب من الحياة العامة ، وفى سعيهم المتلاحق لتركيز حياتهم على النهج الذى خطتـه يد صاحب ترجمتنا ، فأصبح مفهوم الحياة واضح المعـالم بين المطالب يسعى اليه الشباب على مثال سابق بعد أن كان مفهوما متداخل الغايات مترامى الأمداء مجهول المسالك ، يطلبه الناس فى الشخصيات العالمية كسعد وطلعت حرب ليطبقوا مفاهيم هؤلاء للحياة على بلادنا ، ويجعلوا من حياتهم (مثاليـة) يحتذونها ويتقلدون حركاتها .

هذه (المثالية) التى وجدها الشـباب فى نجاحه صححت النظر الى الحياة فكان تصحيحا لابد منه ، وقد تم به نجاح بعض الشباب نجاحا نسبيا ، لا يزالون يتعلقون بأسبابه وغاياته .

وعدا هذه (المثالية) فقد استطاع هذا النجاح أن يفتح باب الأعمال على مصراعيه أمام جميع الطبقات المتفاوتة من أبناء الأمة ، وبذلك أخذوا يودعون عهدا كان (لأبناء البيوت الكبيرة) ميزة التقدم والاستئثار بأطايب الحياة والأعمال ، وكان الناس يعطونهم هذا الحق ، حتى اذا ما نجح صاحبنا شعر الناس بضرورة تقويض نظام الطبقات بطريقة صامتة برزت أخيرا فى صورة واضحة ، كان من أظهر مظاهرها أن جميع الأسماء التى أمست تدوى هنا وهنالك تجرى بها أحاديث الناس ، هى أسماء لا تتصل الى البيوت الكبيرة بسبب أوجدتها ظروف الحياة الجديدة وكفاحها وثقافتها ، لأن الباب الذى ارتج دهرا أمام الكفاءات، وظل وقفا على جماعة خاصة من الناس استطاع صاحب ترجمتنا فتحه على مصراعيه أبد الآبدين .

ولست بعد ذلك أريد تتبع كل أثر لهذا النجاح ، فما أحسب ذلك يأتى بى على كل شىء الا أن أكتب تاريخ الحياة الحجازية فى العهد السعودى .

وأخيرا فان كثيرا مما يجب الحديث عنه فى حياة محمد سرور تعوزنا مصادره ، فان للرجل نواحى

رسمية وشخصية غير ما جاء فى هذا الحديث ، لا نملك التحدث عنها لافتقارنا الى مصادر الحديث ، ونأمل أن يكون ذلك قريبا يوم تتهيأ الأسباب وتوجد المصادر ، وتباح الأحاديث .

عبد الله عريف

فى ١٣٦٤/٣/٢٢

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

THE ABU SHADI
MEMORIAL LIBRARY

PRESENTED BY

CHARLES A. DANA, JR. '37
H. H. PRINCE SADRUDDIN AGA KHAN
COUNCIL ON ISLAMIC AFFAIRS

Princeton University Library
32101 074498476
(NEC)
PJ7862
.A233
Z524
1950